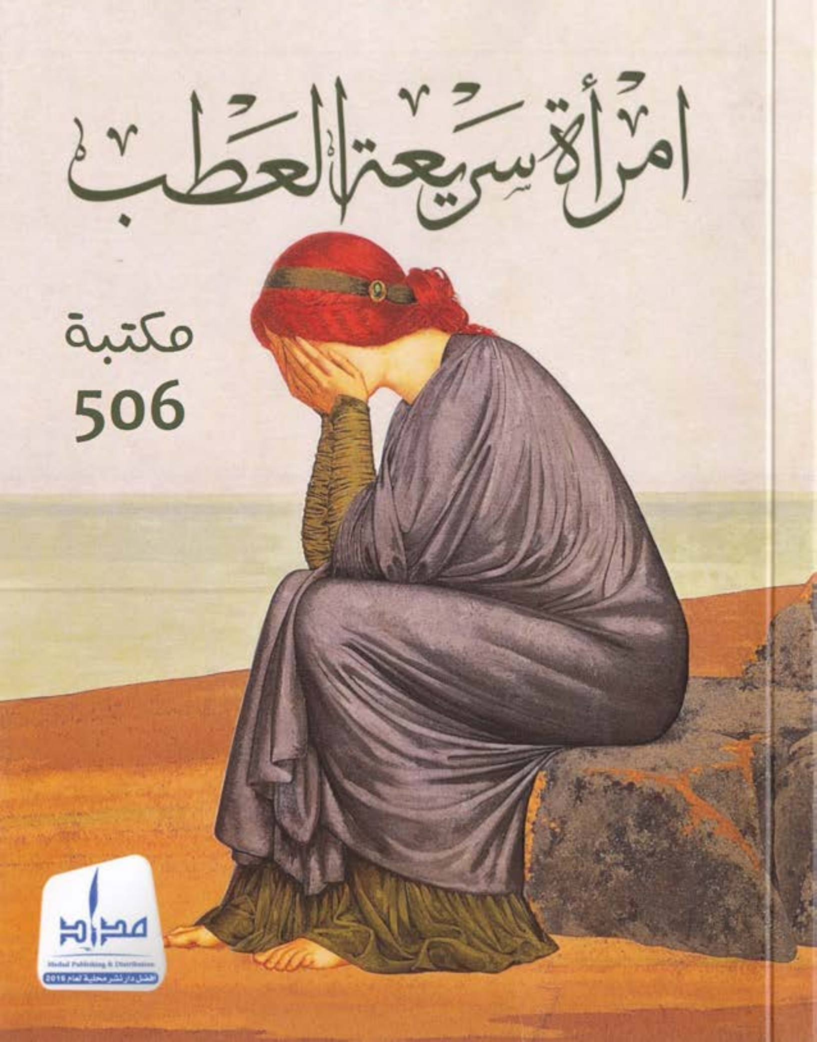
WACINY LAREDJ

واسيني الأعرج

امرأة سريعة العطب



مكتبة | 506

امرأة سريعة العطب

الكتاب: امرأة سريعة العطب

المؤلف: واسيني الأعرج

لوحة الغلاف: الرسام الفرنسي/ Alexandre seon

تصميم وإخراج: مداد للنشر والتوزيع

الرقم الدولي للكتاب: isbn 978-9948-24-415-8

التصنيف العمري: +13

الطبعة الأولى: 2018

تمت الموافقة على الكتاب من قِبل المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة.

رقم إذن الطباعة: MC-10-01-3731493



مداد للنشر والتوزيع

Medad Publishing & Distribution

دولة الإمارات العربية المتحدة - دبي



@medadpublishing

@medadpublishing

medadpublishing1

www.medadpublishing.com

e-mail: info@medadpublishing.com

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

WACINY LAREDJ

واسيني الأعرج



506 | مكتبة

لَكِ وَحْدَكِ.

لَكُنّ جَمِيعا مَعَ حِفْظِ النُّعُوتِ والأسْمَاء.

واسيني

حبيبي النائم في كفّ الغيم والندى، لا تلمني، فأنا امرأة في مهب العشق والجنون.

الآن فقط، وأنا أزرعك في عمق الجرح والكلمات، أدركت أن الغيمة التي كانت هنا، أمطرت رمادا وريحا ساخنة. عندما فتحت لها جرحي، تخلت عنّي بلا أدنى سؤال، ولا حتى قليل من الملح. سألت قلبي للمرة الأخيرة لماذا ماتت شجرتي التي منحتني الحياة وفرحا مسروقا؟ فلم يجبني، لكنه استغرق فيّ طويلا بعد أن وضع في يدي زهرة مارغريت، قبل أن ينبهني للغيمة العاصفة التي ارتسمت في فجوة سماء فقدت فجأة زرقتها. كل شيء صمت فجأة وتحول إلى كون بلا نهاية. بدأت أنزع أجنحة المارغريت البيضاء، وأنا أتمتم كما في الزمن الطفولي: يحبني. لا يحبني. يحبني. لا يحبني. يحبني.... وعندما خفّت الأجنحة الناعمة، وأصبحت بعدد الأصابع، خفت منها. أصبحتُ عمياء، خرساء، بكماء، وطرشاء. دفنتها، وسجيت نفسي بالقرب منها، ولم أسألها عن بقية سرها. نمت طويلا، وعندما استيقظت، لم أجد غيري، فاكتفيت باللغة وبي.

حبيبي قلّل من خطايا الأسئلة المرهقة، واسمعني.

ما زلت عند وعدي. أنا سيدة الحواف القصوى، امرأة لا تقبل القسمة، خذني بكلّي، أو اتركني بكلي، واعف نفسك من تعب حرائقي.

* * *

هذه أنا، وهذا وجعي.

هنا، كما عودت نفسي أن أقف دائما على الحافة، لأختبر خوفي وبعض شجاعتي.

هذه أوراقي، من أراد أن يقرأها فليفعل، لن يكلفه ذلك إلا بعض الوقت وقليل من الساعات، وحفنة من الألم والحنين، ومن لم يرد، فليتركها في مكانها، أو ليرمها في النار. لكني أحذر من الآن حتى لا أُتهم بخيانة من مد يده نحو خوفي وجرحي، فكل من يقرأها سيصاب بي حتما، أرجو ألّا يحملني مصابه العميق. سيكتشف فجأة أن الألم الذي فيّ، انتقل إلى خلاياه ودمه. وربما كان فيه أصلا، ولم تفعل القراءة شيئا سوى إيقاظه من غفوة سلطان الصمت.

أنا امرأة معدية لمن يقرب منّي، أو يمسني.

أنا امرأة عاشقة. والعشق رتبة من مراتب الجنون. لستُ متفردة في هذا، فقد سبقتني نساء أخريات، ودفعن الثمن بلا رحمة.

منذ سنوات طويلة وأنا أكتب، وأبعثر أوراقي جهة رياح الشمال، ربما سمعتني، أو ربما كانت أكثر رحمة من رمل الجنوب الذي يملأني، بلا أمل كبير في أن أجد لغة أخرى تسمعني وتؤنسني. كل ما يحيط بي فقد ألوانه وأصبح أبيض مثل كفن.

صممت اليوم حبيبي بعد أن انضممتَ لقائمة المهزومين، أن أجمعني قطعة قطعة، وأتوسدني كما يتوسد الغريب يتمه. ويوم تنتابني غفوة الموت الرحيم، أجد أمامي ورقا أحبه، ممتلئا بي، أتلمسه، أشمه، ثم أحرقه كما يحرق البوذي خشب الصندل، ليكفن به جسده المتعب بقدسية رماده. وأقول بخشوع العاشقة التي فقدت كل شيء إلا وهمها الجميل: هذه أنا كما كنتُ، وكما لن أكون أبدا. وأصرخ في البرية عل غيمة عابرة تسمعني: ربي كثر الضر عليّ، فارحمني.

اسمي الحقيقي ليس مهما. قد أكون مريم مثلا، ليلي، سوما، رندة، فاطمة، جينا، راما، جهيدة، لطيفة، زينب، عائشة، جيبا، مليكة، فتيحة، لطيفة، صفية، غانو، سعدية، مي، أحلام، مغنية، هاجر، سلام، روز، نجاة، حياة، سميرة، سليمة ... وقد أكونكن جميعا، فنحن لسنا إلا مرايا لهزائمنا المبكرة. لا درس لي أعطيه سوى خلاصة هذا الوجع القاسي والجميل الذي تمكنت من تحويله إلى لغة هي في الأخير الأضمن.، في لحظات التخلي والنسيان الخادع.

لست شيئا في النهاية سوى امرأة هشة مثل فجر هارب، أو جناحي فراشة.

أنا امرأة عاشقة، لكني حقيقية. من لحم ودم ووجع أنا. الناس ينسون عادة الصفة الثالثة، الوجع، التي هي كل شيء في حياتنا المكشوفة والسرية. كل الحب منها وكل الكراهيات المتراكمة هي مصدره. وحده الوجع يميزنا عن غيرنا. كل ما سأقوله متأت من هنا. من هذه الأبواب التي ظلت زمنا مغلقا واتخذت اليوم قرارا بفتحها. فأنا بحاجة

ماسة إلى ذلك لأني امرأة عاشقة، إذا لم أتكلم بالشكل الذي ارتضيته، فسأموت مخنوقة بدمعة أو شهقة أو كلمة.

اليوم صممت أن أفتح الأبواب كلها، بابا بابا. وراء كل باب قصة مستورة، وأمام كل باب كومة رماد كثيف. لم يعد هناك ما أخفيه لمواجهة قدر لم يكن رحيما معي دائما.

أبعثرني أمامكم وعندما أنتهي من حكايتي لملموني بلطف إذا وجدت صدى فيكم، اتركوا رهافة تتجلى كما تعودتم أن تفعلوا مع أجنحة الفراشات، أو كما تجمعون رماد قصصكم الهاربة وتضعونه في مقبرة الروح، حيث ترونه في كل لحظة تشاؤون، ولا أحد غيركم يراه.

قبل أن تشعلوا النار فيّ، اسمعوني قليلا.

انصتوا إلى هذا الجرح الآتي من الأعماق. أعماقكم أيضا: هنا دوما، أمام قدر الكلمات وصمت الحجارة الذي فيّ. نحن لا نكتب إلا لنقول الحرائق التي لم نجد لها حلا إلا وهم الكتابة. لا نكتب إلا لنضع ملمسا حيا على قطرة

دم نزفت في الأعماق، وحده من يحس بها، يراها ويجلس برفقتها في كل عطب يصيبها.

على حافة العطب الأكبر، أشرع أبوابي وأمضي برفقة صمتي، وخوفنا جميعا.

Une Femme trop fragile امرأة سريعة العطب

1 - كما لو أن نحاتا عاشقا مر من هنا

حبيبي، يا هذا العصيّ على القلب.

تركت كل شيء خلف حمم الذاكرة، وجئتك راجلة محمّلة بالريح، وعواصف الخيبة.

هاربة أنا، منّي إليّ، بلا هواجس تشغلني.

مسافرة بلا مرفأ أو وجهة أو مطار. ألتفت نحوك للمرة الأخيرة فقط لأفهمك قليلا ثم أمضي. لقد مضى عمر بلا نهاية داخل مبهم لم أعد قادرة عليه. تكبر المواسم ويتسع السؤال، ولا شيء تغير.

هنا حيث تركتني في آخر مرة، دوما على حافة الانتظار، معلقة بين موت لا يأتي وحياة مستعصية. أبحث عنك في عمق الإجابات الهشة، وفي صوت الريح المشتعلة في الأعماق: هل أنت حقيقة لي حبيبي، أم لسحب أخف من ريش الحمام، لا ينتهي ركضها في سماء سطحها أخضر وعمقها ظلام؟ هل أنت لي؟ أم لها؟ أم لهن جميعا في نفس ميقات الشهقة الأخيرة؟ لستُ أكثر من تفاحة آدم على طاولة عشاء سيدنا المسيح الأخير؟ أو لعنة ركبناها معا ثم انسحبت في صمت وتركتني عليها أبحث عني بلا أمل في الحياة. هل أنت هو

الرجل الذي سلمني مفاتيح بيت الخلوة، ومرفأ الشوق، لأرى المدينة والناس من مرتفع الروح بعين أملكها للمرة الأولى؟ هل أنا من تموت فيّ، أم أنت من قتلني ثم نفض أصابعه من دمي وصراخي؟ أم هي جنازتك بلغتي المستعارة؟ عمر الفراشة لحظة بعد صحوتها، جرمها أنها جاءت للحياة. عمر الوردة لحظة، فهل هو نظام الحياة أن تموت فيّ حتى قبل أن أراك متجليا في همسة الفجر أو الصباح؟ هل وردة أنت حبيبي أم شوكة القلب ووخز ذاكرة أثقلتها الهزائم والخيبات؟ أقاوم لكيلا أموت بغصة في القلب، لكن التعب أنهكني واللغة لم تعد قادرة على فهمي. مآل المزهريات حبيبي موت تقننه الطقوس المستعادة بلا ملل.

اللحظة لا أريد شيئا. أشتهي فقط وردتي فيك، على رعشة صدرك، في عينيك، أو على رأس لسانك، طعم الألذ ولغة المستحيل.

لا يكفي حبيبي أن تهديني وردة كما الواجب وتمضي. أكره هدايا الواجب والوجاهات الزائفة. هناك ورد يصل وآخر يظل معلقا على العادة، قبل أن تأكله روائح المدينة. لا تكفي كلمة أحبك مغلفة بألف شكل للخوف، فأنا أحتاجك فيّ. كلما غفا القلب ثم نام في خلوة الحزن، حضرتَ أنت ووضعت على صدره وردة المستحيل. لا تكفي لمسة العابر لتوقظ جسدي من سبات الموت. أريد منك ملمسا يشفي

القلب من جرح تسببتَ أنت فيه، والقبيلة ورياء الناس وبعض من يحيط بي ويخونني في كل التفاتة.

ساعدني لأقوم بك ومعك، وأمحو عني ذاكرة الخوف. هكذا أستعيدنا من لغة الصمت القاتلة.

مضى زمن ولا شيء مني وصل مسمعك.

بعد كل ما جرى بيننا، هل تأذن لي حبيبي أن أغادرك الآن؟ فقط لأراك كما أشتهي تحت عاصفة المطر الشتوي مثل صخرتي الأخوين في أقاصي الساحل الغربي، وأعريك من أوراق الستر والسرّ لتصبح عمودا للنور. كل المساحات مظلمة سوى من لمعان خيوط الماء من سماء ظلت جافة كما الموت.

ماثلا تحت المطر بقيتَ طويلا، كما لو أن نحاتا عاشقا مر من هنا، نزع الزوائد كلها، جرد الصخرة من أثقال الوقت، ومسح عن الجسد كل زيف، ثم مضى مترنحا من سكر اللحظة، نحو سمائه المقدسة، بعد أن ترجى من الريح أن تغسلك.

يا هبلي ويا كلي، وكل كلي وبعضي في كلي. ولا كلي في غيري. ولا غيري بلا كلي. فامنحني فرصة العاشق أن أكونك، قبل أن تسبقنا رياح النهاية إلينا. وإذا كنتَ ما زلتَ تريدني بعد كل هذه الهزائم، فخذني برفق حبيبي، لقد

أصبحتُ هشة وأخشى أن أموت بين يديك. جسدي رماد فراشة التصقت بقنديل النار، فاندثرت. وتحول بياض نثارها حسرة ألوان كانت تشع قبل قليل. تحسسني إذا اشتهيتَ، فقط لكيلا أتبعثر بين كفيك. ادفنّي حيث تشاء، في جسدك، أو حتى تحت لهب البراكين، أو صوب نجمة العاشقين، أو على هضبة المنسيين التي يركض على نداها الطير والغزلان، ولا تنس أن تكتب على شاهدة ظلي، قبل أن تغادر المكان مكسورا حزينا: **هنا ينام ذئب الخلوة، سيدة الحنين. امرأة سريعة العطب. هنا دفِن رماد الحنين.** بعدها اقفل كتابنا السري، بعثر أوراقه في البحر واجعله طعما لصدفة العابرين، أو احرقه حبيبي، فلن يلومك أحد فليس هناك من يطالب بخوفي، القبيلة اندثرت قبل زمن، وكل من عرفتهم خرجوا يوم وضعتَ قلبك في كفي. بعثر رماد هذا الجسد المستباح في الفراغ وتحت سماء الليل، وحتى في ساحل الغرباء، ودعه ينام بين موجتين. امنح فسحة للأسماك كي تراقص أصداء حروف تعبت كثيرا قبل أن تنام. ربما كان البحر صديق الموت، فالحياة فشلت معي في أن تكون حياة. وأخفقت في أن أكون لها ومعها في عرش سلطانها الكبير.

أنت هنا لم تتغير إلا قليلا، كما لو أني أراك لأول مرة. جميل مثل ابتسامة عاشقة خجولة، مشكلتي أن الذئب الذي فيّ يرفض أن ينام أو يموت.

كما لو أن نحاتا مجنونا بالأشكال مر من هنا، فاختار لك على رخامة الجنون، شكل المستحيل.

2 - ازرعني فِيكَ فَقَطْ، ودَعْنِي أكْبرُ كمَا أشَاءُ

أن تسكن حبيباً بلا سؤال، هذا يعني أنك غلّقْتَ أبواب المستحيل.

وماذا فعلتُ غير هذا في عمق رمادٍ اسمه الحنين؟ أي غياب يعلمك أخيراً أنّي امرأتك الوحيدة، وأنّ لا حياة فيك إلاّ بي. لتعبر كل النساء شطآنك إذا اشتهيتَ أن تكون عكس رؤاك، أو تخون انتظاري وقلبك، فأنتَ تعرف أن امرأة أحرقت بحرها وترابها وغيمتها السرية، لن تركضَ إلا فيك. يوجعني انتظارك كما الألم الخفيّ، وتوجعني أكثر لغتك التي تكبُر في دمي حتى يقتلني الدوار. دعني فقط أسند بعض خوفي عليك، وأسألُك كما سيدة العشق الأولى: أما زلتَ تحبّني أم صنع لك الغياب أوجهاً أخرى لم أعد أعرفها؟ أخاف عليك منك ولن أدعك تفلت من قبضةِ الريح نحو شجن القيامة. صغُرت كل مطالبي يا قلبي، ولم أعد قادرة على اقتفاء الطائرات التي تسرقك مني في كل ساعة، وترميك حيث يزهر الغياب. أحبّني يا قلبي وامض حيث شهوة الأسفار. صغُرت مطالبي ولا شهوةَ لي سوى أن أغمض عينيّ وأفتحهما عليك، قبل أن تنام. لملِمْني كي لا أنطفئ كما الغيمة أو أنفاس العاشقة. شيِّدني من عدمٍ في برج حنينك، وازرعني فيك كي أُنبت من جديد.

هيتَ لك يا هبلي، أنا التي فيك. سنة تمضي وأخرى تجيء. وأنت تكبُر في منافي الروح وتؤنسها. سنة تأتي وأخرى تنتظر، وبحرُك بحري، ولونك لوني، وحقولُ الحنين والشوق تحتل كل عطري. كم كنتُ وحيدة قبل مجيئِك محملاً بالياسمين والخزام وعودِ النوّار البلدي. سنة تهرب وأخرى تستنجد بي، فكيف لي ألا أراك وأنت أنا؟ دعني في يقيني، لا أصدق ما تراه رؤاي. كيف للظلمةِ أن تغرقني وأنت مَنْ أنبتني فيك؟ كيف لا أنحني لك وأنا مثقلةٌ بك؟ مفعمةٌ بتاريخ الوجع الذي بيننا، وبشعلةِ حنينٍ يعيدني كما الموجة الهاربة، إليك. كيف لي ألا أضع يدي في كفِّك بعد أن ضاعت مني المسالك والسبل قبل أن أعبرَها فيك؟ كيف لي ألا أسكنك وأنت بيتي الأخير الذي منحني الدفء وألبسني الانتظارَ ودثَّرني في زمن العراء؟ أنت تعرف سرَّ ألمي، فلماذا كلما غفوتُ رأيتُك تسحبني نحوها؟ كلما رأيتُها في عينيك تحولتُ إلى رماد عند قدميك. لا أريد أن أموتَ إلا فيك. البرد خارجك يؤذيني. عيني في عينيك ولا شيء أراه فيك غيري، وإذ أراني لا أراني إلا بك. نكبُر معا في الظلِّ وعندما توقظنا نجوم الفجر الأولى نبحث عن ملامحِنا، ونركضُ في عرض سماء نشتهيها لنا فقط. منحتَني قطرةَ الماء التي تسبق الموت عطشاً، فسحبتَني نحوي. قلتَ لي يوم جفَّت السواقي وتبعثر زجاجُ السماء، هيتَ لك أنا الذي فيك. أنت

من دس البحرَ في عيني، ثم أخذتَني من كفِّي على حين غفلةٍ، وركضتَ بي على كل حواف الدنيا ولم أر شيئاً غير قلبك وابتسامتِك التي سرقتْني من غفوةِ العاشقة. يوم خانتني الألوانُ كلها، وتخلتْ عني موجةُ الشوق، سحبتَ قوس قزح، ألبستَني زنّاراً من حرير الغيم، وأوقدتَ شعلةَ القلب ولونتَه بالنار. من يملك سحرَ اللون بالنارِ سوى عاشقٍ يمضي في الحياةِ ولا يلتفتُ نحو السؤال. تنهكه الأسئلةُ التي تعيدُه إلى بدءِ الخليقة وكونٍ لن نغيِّر فيه الشيء الكثير. يوم احتل السوادُ قيامةَ الحنين، لم أجد غير كلماتِك التي قادتني نحو مزارعِ الشمس وأجنحةِ الفراشات التي مدت أجنحتَها لتنوّمني على سريرِ الورد. كلمة واحدة تكفي لتُوقف العواصفَ عند بوابات المهالك، وتنحني للصمتِ الذي فيها. كلمة واحدة تكفي أيضاً لتوقف الزلازل عند منبت الشجر، وحافةِ البحر، وحرقةِ الغيم، وتُصالحَ الشمس بالمطر، دون أن تلمسَ المدينة. كلمة أخرى تكفي، فقُلها. قلْ أحبُّكِ، لتجعلني أرقص عاريةً، في عين الخوف، بلا أدنى سؤال. كل المسافات التي رافقتْني تنام الآن في كراسةِ البنفسج الطفولية التي صنعتُها من ورقِ الغياب وأنفاس الفرح وركض التيه. هل رأيتَ يوماً الأرض تعلو على السماء؟ هل رأيتَ النجمة تستلقي في الرملِ وتنام؟ هل رأيتَ الغزلان تطير؟ أشهد أني رأيتُها ولمستُها، ونمتُ في

حضنها على متنِ غيمة الفرح. منحتْني كل شيء. أعادتْ لي أنايَ، فكيف لي ألا ألتفت صوبَ الحائط عندما تمر بالقربِ من البحر، أو في الشارع المطل على نافذتي وقلبي؟ كيف لي ألا أراك وأنا أرى ما لا ترى فيك، طفلا لم يمت. رجلاً لم يكبر. امرأةً ظلت واقفةً تحت المطر والحرِّ وثقل الغيم، في يدها شيءٌ من روحِ الله وملمس الملائكة. كم من الكلماتِ أحتاج فقط لتفهمَ أن هذه الحفنة من الفرحِ والرماد ليست أنا فقط، ولكنها أيضا تجلّيك فيها. سأموت إذ ترحلُ يوم تُسدَل ستائرُ النور في عينيك، لا لأن بي شهوةَ القبر ولا فتنةَ المطلق، لكن لأني كلّك حين تنسى بعضك، وبعضك حين ينساك كلّك. سأسبقك نحو صمتِ النهاية لأكون فراشك وظلَّك، وأوقظك لأشركك أنفاسي وبقايا الشعاعِ الذي في عيني. لا تسألني كيف؟ لكني سأكونك: جسدك المتمادي في الغيّ والجنون، لغتك التي تخترقُ صمت القبر. ضحكتك وشمسك حيث تغيب العصافيرُ والغيم وقممُ الجبال التي لوَّنَتْ طفولتَك. كيف تريدني ألا أراك يا هبل التفاصيل والقلب، وأنا إذ أصلي لقطرةِ الحياة الأخيرة، ينتابني الله فيك. حين أطلبُه، لا أسمع صوتاً غير صوتِك يأتيني، لينبّهَني أنك مازلتَ

تغرسُ قدماً في الحياة. وأخرى في شهوة الركض عبر المحيطات لتلقى شمسا، كلما وجدتَها، فلتت من بين يديك. ألم تقل لي هذا يوم التقينا؟

شمسك وغيمك أنا، وأكثر. ربما كنتُ قدرك الأوحد.

دعني الآن أغفو إذن، ربما لمحتُك في الرعشةِ الأخيرة وأنت تركض نحو جوعي إليك. ربما مددتُ يدي التي لن تجمعَ هذه المرة الغيومَ وغبارَ الريح.

ازرعني فيكَ فقط، ودعني أكبُر كما أشاءُ، نجمةً عاشقة، بين ملايين النجوم.

3 - أخفقت في أن أكون لغيرك

وطني أنت يا الله، ألا يكفيك هذا الوصف؟ فلا تحملني قسوة كل هذا الغياب.

اسمعني ثم امض حيث تشاء، وتشاء فيك صدفة الأقدار.

اسمعني قليلا، صوتي لم يعد قادرا على الصراخ، وذاكرتي أثقلتها الهزائم.

أسكن قطرة ماء من أمطار لقائنا الأول، وأسير نحوك. لا شيء يشدني إلى الوراء غير موت مخادع يتخفى تحت جلودنا أو معاطفنا القديمة.

وطني أنت، امنحني فرصة أن أسكنك.

ثم ماذا يا هبلا احتل اللحم والدم وبقايا عظام تقاوم شطط السنين.

ثم ماذا حبيبي لو تحدثنا قليلا، وسلكنا ظلمة الشوق الدفين. أنت لي، ألم تعرف بعد هذا؟ لك بلا سؤال ولا شكوك ولا أسئلة قاتلة. أمتني فقط وأحييني كما تعودنا أن تفعل في أيام العشق الأولى. هزني، أضحكني وأبكيني وامنحني متعتك

الدفينة. ستجد بين يديك امرأة سخية في العطاء. تحبك بلا ميزان العقل، في عمق الجنون.

ثم ماذا حبيبي لو حدثتكَ قليلا عن شغفي بك وعن خوفي الذي سُجِنتُ فيه؟

ثم ماذا لو عرفتَ حبيبي أن امرأة مثلي تموت في كل ثانية سبعين ألف مرة، وأنني كلما انتصرت على الموت، وجدتُني فيه ميتة؟ فهل تتحمل هذا النزف الذي كلما اتسع، تأكد لي أني أفتقدك؟ ألم تمل بعد من حكاياتي الحزينة وقهر العزلة في غرفة الخلوة؟ شغفي بكَ، هو تماهي فيك. كلما صليت لله استغفرته لأني أشرك حبك به. لا حب لي فيه إلا بك. لا صلاة تستهويني إلا لكَ. لا صوم لي إلا جوعك، ولا قبر لي إلا ترابك. لا بيت لي إلا لغتك وأسرار جملك الخفية. لا سرير لي إلا كفيك وذراعيك وصدرك وبعض غيمك. ألم تملّ من دمعي وخوفي وغيرتي وهبلي؟ ألم يساورك يوما شك في أن أقتلك فقط لأستفرد بك خارج كل العيون؟ كم هو مضن جرح يكبرنا عمرا، كلما رتقناه زاد اتساعا.

هنا أنا يا شغفي الأسمى، في عزلة الدلافين الأخيرة قبل ان تودع ملحها وزرقة حلمها وبقايا قصص، دفنها الموج لزمن قد لا يأتي أبدا.

هنا أنا، على درج السلم الأخير، أمد يدي لأقطف آخر عناقيدك لأسكر بك وأمضي خارج صحراء الخوف وبرية الشجن. صعب علي أن أسافر بلا حلم ولا قطعة خبز وبعض عنب أمي وقليل من الملح لدرء العين.

هنا أنا، أصغر من نطفة عبرت مهاوي القرون قبل أن تستقر في رحم لم يعرف العالم إلا من شطط الطيبة والأيام الحزينة.

هنا أنا، كما سكنتني، لا الريح تخيفني، ولا لمسة الرعد على جسدي، ولا صوت عواصف الأعماق. تعبت من المفردات التي تذهب وتعود في عرش الأبجدية الصغير. لم تعد كافية لتجعلني في منأى النسيان.

هنا أنا، فقط لأراك وأتأكد أنك ما زلتَ حبيبي.

كم من قسَم ينبئك بصدق عين لم تر إلاك؟ وكم من دهشة مسحت كل الرجال من حولي ولم تبقك إلا أنت؟ وقلب لم يخفق منذ زمن بعيد إلا فيك؟ وجسد سرقوه مني وهو فُصِّلَ على مقاس جنونك؟ كم يلزمني من قصة أرويها لك لتلمس خفايا الدهليز المبهم فيَّ، ولتدرك لثانية واحدة أن هذا الوجه المغالي في التعب والشغف والأنين، أمضى عمرا طويلا يبحث عن كفيك لينام أخيرا في هدأة المحارب الأخيرة، أو يموت من دون أن يربك نملة أو زهرة مثقلة بندى الفجر، أو غيمة في

سماء فقدت كل ما كان لها من ألق ودهشة. كم من حاسة تقف عند دفئك لتكون لي حتى في حلمك.

أحسد امرأة من بخار خارج ممسك اليد، وجسد من غيم يسرقك مني في غفوة النوم.

أحسد الشمس التي توقظك قبل ابتسامتي، وتضحك منّي في راحة المنتصر.

أحسد الريح التي ترميك في عرض السماء في غيابي.

بل أحسد لذة لست أنا مصدرها.

أحسد لمسة نامت طويلا فيَّ قبل أن تتجلى في هيئة نور، وأنثى بلا رجل يدهشها.

كيفما كانت الأوهام التي تسكنني، وكيفما كانت رعشتي بين يديك أو في غيابك، أحبك ولا يقين لي إلا سراب العشق المنتشي بحلمه الجميل. لم أطلب أكثر من كرم الأقدار التي حملتني بين ذراعيها ثم طوحت بي نحو دروبك.

لم أكن أعرف يا هبلي الكبير، أن وجها نبويا يمكن أن يسرق مني عقلا ظننته يكفي ليُسكنني في قلبك.

لم أكن أعرف أن سؤالا صغيرا سيسرقني أبدا نحوك ويدفنني إلى الأبد فيك. بل لم أدر يوما أن شمسا صنعتها بأناملي ولغتك يمكن أن تصبح ظلا، ثم هواء، ثم غيابا.

لم أكن أعرف أن اليوم الذي رتب كل مواعيدي معك سيخون وقته ويتلاشى مثل ملح الوعد.

لم أكن أعرف أن اليد التي امدت لتمس قلبك كانت مشبعة بالأنين.

حبيبي الذي مضى في أدغال المطر وعصف الرياح، سمعت صمتك فالتفت صوبك كأنك رجل الأقدار المشتهى. أحبك ربما كانت الكلمة أصغر من همسة، لكنها أعنف من قيامة. أحبك أبجدية مثل ندى الروح إذ يصيبها عطش الجفاف، تورق من سر التربة. أُ حِ بْ بُ كَ، مفاتيح أسرار الله، والكون. أحرف خمسة تشبه اسماءه الحسنى. أحبك، كلمة أصغر من نفس رجل اشتهى، وأكبر التفاتة تعيد سحر الحياة لعاشقة. كل ما مضى من زمن لن يساوي نظرة هاربة من رجل نحبه. أحبك. أصغر من عين ترى، وأوسع من دنيا ملفوفة بأسرارها، قبل أن تنام على شغف لن يتكرر.

هبلي المستعاد، لو كنت أعرف أن تلك الثانية التي جمعتنا وأوجعتنا، في غفلة منا، كنت سبقتها بعشرين سنة ومليون خطوة، فقط لأسرقك منها، وأسكنك في، فأنا أولى منها بك.

كم من الورق سُرق منا، أو سرقته منا غفلة العشاق حين تقتلهم الغيرة؟ دعني فقط أستغفر خالقي على شكل تفاحة لم يفتحها أحد قبلك، وعندما مسها إبليس احترقت يداه.

كنتُ لك دوما، وأخفقتُ في أكون لغيرك.

4 - خذني إليكَ، أو اتركني أموت كما أشتهي

حبيبي، يا هبلي الأعظم، ويا لغتي الحارقة، يا انتصاري الأوفى وكل هزائمي، خذني بين ذراعيك ودعني أتجلى فيك. ما أدهش أن تحتل امرأة رجلا لم يكن يعرف خفايا سره. لم يكن نبيا، كان فقط شبيها لحرقة التربة، وسر اللغة، ولسعة الريح، وشدو الطير في الزمن الموحش.

يا هذا الذي سكن جرحي الأول، يا سيد الخطايا والحنين. يا فرحا مستباحا، ويا جنونا يصنع لي، كلما استكان الظلام، سماء أخرى وأرضا من شجن. كم أنتَ هنا، وكم قتلتَ الغياب. كيف أضعك في قلبي دون أن أحرق نبض الوريد. ها أنتَ للمرة المرّة الأخيرة، تخرج، ثم تنسى أنك أصبحتَ بعيدا، فيضيق القلب، تشتعل الأبجدية التي فيه، تكبر أوهام الأقدار، ويتسع انتظاري كما دوائر الماء إذ تلمسها الأصابع العطشى، وتهزها الرياح. يسحبني حبك الغائب نحو مدى الأشواق، ويغرقني في زرقة لونها المستحيل.

لستَ مدانا لي بشيء، أنتظرني فقط لأقول إني شبعت من رؤاك.

انتظرني على كل حواف الماضي التي التقينا في ظلها خلسة، أو أمام أعين الصخور، بالقرب من مسجد صغير أو مقهى لم ينتبه لوجوده أي من العابرين. أستعيد تعبك اليومي وكسورات وجهك الذي مضى، وأصر على لقائنا الأول بسبب كتاب أو حزن قديم.

انتظرني ولو قليلا لأتربع ولو فيك كما التمثال العالي، وأنت تحارب ظلال الشياطين بالضبط كما فعل جدك، في عمق دوار حرب لا تنتهي.

انتظرني وأيقظني من غفوتي مثل طفل فقد ثديي أمه. وتذكرني.

لماذا الحرب ونحن لم ننتصر في أي منها؟ الوحيدة التي صنعت بطولاتنا، تلك التي أهرقنا فيها دمنا، ولبسنا جلودنا المتفحمة والمحروقة، وخرجنا في احتفالات النصر وشيدنا أياما وطنية على ركام من الهزائم، وملايين المنسيين. نحتاج إلى بعض البطولات الوهمية وكثير من الكذب لنلمس يقين الخرافة.

الرياح التي تسرقك الآن مني، وتمنحني ظلك المستعار للعبور، أخاف أن تتخلى عني عندما أتعبك بأسئلتي المرتجفة. وأترجاها لكي ترفعني نحو مقامات الغياب. أكاد أصرخ بيأس العاشقة التي خسرت كل شيء إلا قلبها: يا الله، يا مولاي العالي فيّ، يا سيد سرّي، ها أنا ذي ورقة من شجرك المقدس، ومن عطر

نبتة السحر في حديقتك الكبرى، ومن شعلة حبك للكائن الذي رسمتَه فيك، ومن غصن من مداك، ومن نفس من روحك.

هذه أنا رعشة فيك، فلماذا لم تخلقني يا الله امرأة من سعف النخيل، ومن رياح الأعالي، ومن سماء الحنين؟ لماذا منحتَه ما احتجته أنا في عز اشتياقي إليك. أستكين فيك وأصمت. هل للمحتَج حق في المحتج عليه؟ ضوء المسافات يحيلني إلى صمت الحجارة والصخور. لكن أنفاسك التي فيّ تمنحني حقّ الصراخ على نظام اختل، وعلى عشق أخذته منك، فكيف تقبل أن تُسرقَ مني أنفاسك؟ لماذا أستعير أجنحة الفولاذ لأرحل نحوه بلا هواء ولا غيوم. كلما احتجته، رآني وكلما مد يده نحوي نمت في كفي؟ لم تعد الاستعارة كافية لكي يبرأ قلبي ويشفى غيابي.

لماذا يا الله لم تشكلني وفق بعض سلطانك، أضحك من عنف الجاذبية، وأستكين لك، وأسخر من كائناتك التي لا تروق لي. وأركض في السماوات كل يوم بلا أجنحة تثقلني، أجرب ارتعاشات قلبي في عمق الأعالي، من يدري ربما كانت أسمى وأبهى. أراك من هناك كطير يبحث عن سحر ما لا يراه غيره. أضحك عندما يخفي عني حبيبي قصصه الصغيرة، وحماقاته، وأسراره التي يأتيني عطرها من تربته التي في يديه أو في بقايا

عرق امرأة أخرى. أراه فأقرؤه، أشمه فأعرف سره. أتأمل النطفة الهاربة نحو رحم الخوف، فأركض بسرعتها نحو الأقاصي، وأوقفها عند نافذة الطيور. إلى أين؟ أسالها فلا تجيب، لكنها تبكي: **اشتهيت أن أكونك فيه**.أتأمل ملمحها الأخير وهي تغرق في رغوة الرماد. أنفخ في روحها وأمنحنا عمرا جديدا فقط لأرى كيف تبتسم النجوم كلما سكنتنا الحياة. تفتح النطفة عينيها على وجهي. أرضعها حليبي حتى تظل مُدينة مدينة لي بالحياة. تنتشي بي وبها أكتشف سر الخليقة.

بيني وبينك مسافة الغيم والسماء والنجوم وبعض الدم. بين قلبينا رعشة العاشق الهارب من قدر شكّلته أنت بيديك. أكثر من مرة سحبتني نحوك وهمست في قلبي: أغمضي عينيك. ماذا ترين؟ لا شيء، لا كائن غيرك أراه. تعاود الكرة بهمس العاشق. أملأ أنفاسي بك. ماذا ترين؟ لا شيء أرى، طفلة بكل ألوان الدنيا، وسحابة من ياسمين. ثم... ماذا ترين؟ أعض على شفتي السفلى، أشعر بكذبة تشبه ما في عمق عينيك. لم أعد نطفة هاربة في سيل المسافات المستحيلة، لكني امرأة من نخيل الصحاري، وقامات الريح. امرأة من ثلج الشمال، صلبة وجارحة، كما نبل الرخام .أنا غيمة بلا وطن ولا سماء، لا تشبه ما أراه. رمح أنا بين سلطان الريح، والكف التي تشدها. امرأة خارج اليقين، تضيع هنا وهناك، ثم تعثر

على أثر من دمها فتصحح المسار. تصعد وتنزل، ثم تعود الى استقامتها. تتشكل كما الهلام في حضن البحر، وعصف الموج، ونور النجوم.

أرى ما لم أره أبدا، لكني أراه. في كفك تلعب أشواقنا كالجمرات المتقدة. وأراني امرأة تراقص رجلا تانغو الوداع. يكبرني بعمر لن أدركه، لكن لا عمر لعاشق رمى بنفسه خارج الزمن ولعن الجاذبية. أتماهى في عطره وبعض عرقه الذي أشتهي، كلما انتابني ألم الفراق. نرقص. نرفع اليدين نحو النجوم المسكرة، نهيم في طلق الهواء، ونقاطع الأرجل بسرعة ثم نشتبك حتى يصبح الواحد فينا أوحد.

لم أعد نطفة، ولست رحما مهملا جف من شدة الانتظار. تسابقني في ركض نحو مطلق الحياة أو موت في منتصف الطريق، فأشرع لها النوافذ حتى تغيب.

ما الذي حدث في ميزان الحياة؟ كيف أصبحتُ أنا الغيمة، كيف أصبحت أنت غطاءها؟ كيف لنا أن نمنح السماء شكل ما نرسمه عنا، بلون القلب؟

ضمني إليك أو اصمت، ولا تسألني عن أية خيانة قبلة. منذ فتحت عيني لم أر غيرك. حتى عندما سلكت بعض طريق الغواية كنتَ أنت من وقعها على جسدي. إليك خذني، بلا

عنف السؤال وشك المريض، أو اتركني أموت كما أشتهي. فأنا أرتعش من خوفي أن تفتح عينيك يوما ولا أراني فيهما.

أخاف أن أركض نحوك، فيصدمني ظل، أو بقاياك على حافة قصة في نزعها الأخير.

يا هبلي الأعظم، انصرني على المستحيل، وابقني فيك حتى أتلاشى.

5 - ألم تتعب حبيبي من أسفارك؟

تعودت على غيابك كمن يتعود على الموت القليل.

لماذا حبيبي تحزن كلما قلت لك خفف من أسفارك وتطرف مزاجك؟ ألم تعلم بعد أن السماوات التي تعبرها بسرعة النجوم، ورياح الشمال تسرق بعض عمرك ولونك؟

لم يعد للزمن وقت نتقاسمه كما كنا قبل سنوات مضت.

وكأني لم أقل شيئا. ما زلتَ تسكن الفضاءات بحثا عن نجمة تتبعثر فيك.

لم تتغير كثيرا منذ آخر لقاء. لغتك التي تؤجل انتحاري وتمنحني عمرا بلون البنفسج يسرقها مني الكثيرون، عذرا الكثيرات. تقول وأنت تدفن رأسك بين كفيك كما كنت تفعل أمام أمك كلما عرّت كذبتك: لغتي حياتي، وهوائي، وسمائي، وبعض ترابي، وأنفاس أجدادي. كيف أستعيدك كلما غبت يا هبلي بلا لغة؟ كيف أركن إلى قلبي وأنا في سماوات الوجد، وأنت على أرض البراكين والبحار وبعض الخوف؟ كيف ألمسك كما الساحر برأس الأصابع المحروقة من كثرة تحسسها لنبض الحياة؟ تلك سمائي التي لا قاتل يقتلها، ولا سارق يدركها، ولا عاشق غيري، يأملها. أركض صوبها. أتخفى فيها وليكن رماد

النهايات حليفي. أوقظها إذ تنام، أسألها حينما تغفو. وكلما تخفت وراء النجم غرقت في النوم لألمسها بحواسي وقلبي. سلالمي الأحلام وكوابيس أتحملها لبلوغ المرتقى. كيف أعثر على غبارها وشعاعها وضوئها المسجى في كل لحظة أمام غربة المسافر، كيف أسمع أشجانها وأرى دمع النهايات، وأستحم في غبار الجسد المتحلل إن أنا أوقفت أسفاري؟ هل تعلمين يا قلبي أن في كل رحلة شيئا من حيرة النور والقيامة. لم أخلق من طين الأرض، ولا من ألوان الفجر، ولا حتى من صرخة الوديان. ريشة أنا في مهب الحياة خُلِقتُ من حيرة العذارى والغرباء في أرض ترفضهم. كلما أطلقت سلّمي نحو أبعد نجمة، شعرت بأن المسافات بعيدة، وأمامي عمر عليه أن يمنحني فرصة ارتقاء السلم، ولا يهم إن خدعتني السلالم وأنا معلق بين سماء وغيم.

في هدأة قلبك، استكنت قليلا واستمعت لهمسة البهاء فيك: لن أطلب المستحيل. حرية الطفل في أن يصرخ ويبكي وينام. ألم تقولي كلما نمت في لغتك وجدتك في كفي حفنة من فرح، ونثارا من نجوم، فيزول خوفي من طغيان الغياب.

كلما سرقتك سماوات لم أعد أحبها، سالتُني في غفوة المنتظرة: هل أنت حقيقة يراها الناس إذ أراها، أم مجرد حلم أرفض الشراكة فيه؟ فهل تعرفني بعد عمر مضى بين فرحة العودة

وشجن الهرب نحو سماء الحجر؟ أنا امرأة من قصص وخوف، أرفض أن يكون حلمي أيضا متحفا يدخله كل من يشاء. حلمي أنتَ، لغتي، فرحي وأقصى أنانيتي، كلما سلّمتُ فيك، سدّ أبوابه في وجهي. خذني لا كما تشتهي، فأنا لم أُخلق لها، ولكن كما يصرخ ألم امرأة لا تراها إلا فيك. امرأة نظمت وقت الحياة على إيقاع خطاك.

حبيبي لغتك انتحاري. ماذا فعلتْ بي؟ أسكنتني في غرفة الموت الشهي. لا موت شهي إلا لحظة الغياب. لا حياة إلا عندما تكون هنا، ولو مثقلا بقصص لا تحكيها إلا في حضرة الشوق السخي.

تعبت كما تتعب السواقي والنجوم في عزلتها، تعطي ما امتلكت، وكل يوم تجف قليلا. لا خيار لي في انتظارات لا تنتهي. سافر حبيبي أنا شئتَ، وإذا لم تعد يوما، سأقنعني بأنك مازلتَ هنا، وأحدد كما تعودت أن أفعل كلما طال غيابك، ميقات انتظارك. أتعطر بشهوة عطرك الإيطالي وبقايا ترفك، ثم أركض نحو المطارات وأنتظرك في ظلمة الزاوية، التي كلما عبرت حاجز الحدود ركضت نحوها كمن يولد من جديد. كل رحلة مغامرة، وكل مغامرة مقامرة. صعب عليّ افتقادك بصدفة الأقدار.

تعودت على غيابك كمن يتعود على الموت القليل، وعلى القلق المستباح.

لماذا حبيبي تنكر على قلبي أن يحزن كلما كان الفقد قاسيا؟

قلل من أسفارك وتطرف مزاجك؟

اشرب كما تأمرك شهوتك الحارقة. أشعل السجائر التي تشتهي لمن يذهب قلبك نحوه، وسافر حيث تشاء، وانتعل أي سماء، قريبة كانت أم بعيدة، لكن ألم تدرك بعد أنّ ما أمضيته في الرحيل، وضيق الطائرات، أثقل من عمر ينام فيك. ألم تعلم بعد أن السماوات التي تعبرها بسرعة النجوم، ورياح الشمال، ورعشة العصافير، تسرق كل احتمالات الحياة؟

ألم تتعب حبيبي من أسفارك بعد؟

أحبك كما الجنون يشتهي صاحبه، فدعنا نمضي معا، ونستدعي عمرا وحدنا من يملك سره. مرافئ الحنين لم تغلق نوافذها، ولا أغلق البحر أبواب العبور.

الحياة واحدة، إذا قبلنا بقسمتها، خسرنا نصفها. خسرناها كلها.

6 - دعني أمضي فيك

هنا مازلت أحكي لنفسي أبهى القصص. لم أتحرك من ألمي إلا بمسافة عمر.

لا شيء تغير سوى أن بعضك ما يزال هنا، وبعضك الآخر سُرِق مني إلى الأبد، ولا أملك حياله إلا اليأس.

ماذا أقول حبيبي. دعني أنام قليلا لكي تمضي هذه السنة الهاربة في غيابي. أنحني لأعلن عن خوفي من زمن لم أعد أعرفه وغيبني فيه.

سنة تمضي وأخرى تتبعها، وثالثة تموت. وأنت تكبر فيّ، في منافي الروح وتؤنسها.

سنة تأتي وأخرى تنتظر وبحرك بحري، ولونك لوني، وحقول البرتقال تحتل كل عطري. كم كنتُ وحيدة قبل مجيئك محملا بالياسمين والخزام وعود النوار البلدي.

سنة تهرب وأخرى تستنجد بي، فكيف لي أن لا أراك وأنت أنا؟

كيف للظلمة أن تغرقني وأنت مَنْ أنبتني فيك.

كيف لا أنحني لك وانا مثقلة بك، مفعمة بتاريخك وبشعلة حنين أعادني إليك.

كيف لي ألا أضع يدي في كفك بعد أن ضاعت مني المسالك والسبل قبل أن أعبرها فيك.

كيف لي ألا أسكنك وأنت بيتي الأخير الذي منحني الدفء، وألبسني الانتظار، ودثرني في زمن العراء. عيناي في عينيك، ولا شيء أراه فيك غيري، وإذ أراني لا أراني إلا بك. منحتني قطرة الماء التي تسبق الموت عطشا، فسحبتني نحوي. قلت لي يوم جفت السواقي وتبعثر زجاج السماء، هيتَ لك أنا الذي فيك.

كيف لي ألاّ أهرب بك نحوي، وانت من دس البحر في عيني، ثم أخذتني من كفي على حين غفلة، وركضت بي على كل حواف الدنيا، ولم أر شيئا غيرك، وابتسامتك التي سرقتني من غفوة العاشقة.

كيف لي ألاّ أعشق الهبل غواية، وأنت الذي نهى القدر من أن يؤذيني. يوم خانتني الألوان كلها، وتخلتْ عني موجة الشوق، سحبتَ قوس قزح من ذراعيه وطوحت به نحوي. وضعتَ لي زنّارا من حرير الغيم، وأوقدتَ شموع الجنون، وشعلة القلب، ولونتَ الشوق الدفين بألسنة النار وبعض الكبرياء.

كيف لي ألاّ أسقط بين ذراعيك تفاحة غـوايات الشهوة والحب، بلا مقاومة ولا خوف دفين.

كيف لي ألاّ أموت وأحيا في كفّك اليسرى قريرة العين مثل غيمة في سماء يتيمة؟ يوم احتل السواد قيامة الحنين، لم أجد غير كلماتك التي قادتني نحو مزارع الشمس وأجنحة الفراشات التي مدت أجنحتها لتنوّمني على سرير الورد. كلمة واحدة جاءت من قلبك، أوقفت العواصف عند بوابات المهالك، وانحنت للصمت الذي فيها. كلمة واحـدة تكفي لتوقف الزلازل عند منبت الشجر، وحرقة السحاب، وتصالح الشمس مع المطر. كلمة ثالثة تكفي، قلها: أحبك، لتجعلني أطير في عين الشكّ، وأرقص عارية بلا أدنى سؤال. كل المسافات التي رافقتني تنام الان في كراسة البنفسج التي صنعتها لي من ورق الغياب، وأنفاس الفرح وركض التيه.

حبيبي وهبلي الذي لا حد لسلطانه، هل رأيت يوما الغزلان تطير؟ أشهد أني رأيتها ولمستها ونمت في حضنها على متن غيمة الفرح. منحتني كل شيء. أعـدت لي أناي المسروقة من أكف القبيلة، فكيف لي أن لا ألتفت صوبك عندما تمر بالقرب من البحر أو في الشارع المطل على نافذتي وقلبي؟ كيف لي أن لا أراك وأنا أرى ما لا تراه فيك، طفلا لم يمت، ورجلا لم يكبر إلا قليلا. امرأة أنا من رغوة الحليب، أقف الآن

على حافتك القاتلة باستقامة أبطال الأساطير. أنام تحت المطر الملون، وثقل الغيم والسماء.

امنحني يدك أقبلها. في ملمسها الناعم شيء من روح الأنبياء ونفس الملائكة وأولياء الله الصالحين. كم من الكلمات أحتاج فقط لتفهم أن هذه المرأة الصغيرة التي يتجاوز قلبها حجمها بكثير، هي حفنة من الفرح والخوف ليس أكثر. كم أشتهي أن أتجلى فيك ولنشترك في التماهي بالوجد، للحب نعوت ولغات لا قوة تحجّمها، ولا يد تسرقها. أشتهي سماعك حبيبي فاذكر لي أسماء الحب الحسنى: **حب ووجد يتجلى في العشق الكبير، وهوى يسرق العقل ويجعل الروح تطير**. زدني حبيبي مما ملك إيمانك من سحر كلمات سيدها الحب والانتشاء: **هواي هواك كما الطير إذ يرقص في عاصفة. صبوة الشغف ميزان القلب عندما يضيّع مسالكه والطريق. وجدي يا قلبي كلَفٌ شق المدى ومشى نحو المقصلة. نجواي، لغتي الغامضة، وسحري كلما التبس شوقي بنبض الغرام. فهل للهيام فيك مكان لينام الودّ قليلا في استكانة؟**

يا ربي ارحمني من دوار الكلمات القاتلة. كيف لي أن أحيا في غيابك العنيد؟ سأموت إذ ترحل يوم تسدل ستائر النور في عينيك، لا لأن بي شهوة القبر، ولا فتنة المطلق، لكن

لأني كلك حين تنسى بعضك، وبعضك حين ينساك كلك. سأسبقك نحو صمت النهاية لأكون هناك، فراشك وظلك، وأوقظك لأشركك أنفاسي وبقايا الشعاع الذي في عيني. لا شيء يموت قبل الموت. لا تسألني كيف؟ لكني سأكونك: جسدك المتمادي في الغيّ والجنون، لغتك التي تخترق صمت المقابر. سأكون ضحكتك وشمسك حينما تغيب العصافير والغيم وقمم الجبال التي لونت طفولتك وسرك العشقي الصغير. ما اسم امرأتك الأولى؟ يا حظها، فقد عرفت الطفل الأول وسحبته من حضن أمه باتجاه نهد لن يجف حليبه وعسله، أبدا.

كيف تريدني ألاّ اراك يا هبل التفاصيل والقلب، وأنا إذ أصلي لقطرة الحياة الأخيرة، ينتابني الله فيك. حين أطلبه، لا أسمع صوتا غير صوتك يأتيني، لينبّهني أنك مازلتَ تغرس قدما في الحياة. دعني الآن أغفو إذن، ربما لمحتك في الرعشة الأخيرة وأنت تركض نحو جوعي إليك.

هنا ما زلت عند عتبات القلب، وأبواب الجسد المقفلة، فدعني أمضي فيك.

7 - كأنك لم تعرفني، كأني لم أرك أبدا

الأمطار حمام من فرح، وأنت مرة أخرى، لستَ هنا.

كم ضيعنا من فرص في بلاد شحيحة، لأمشي مفتوحة العينين في ذراعيك، ولتتكئ على قلبي كي ترى خفايا المسالك والطريق. مطريتي العاشقة مثلي، ترميني فيك.

أمشي وحيدة كما اليتيمة، في شارع المطر والغيم وظلال الشجر. حملي ثقيل على القلب ورهافة الذاكرة. لم ألتفت نحوك، لأنك كنتَ هناك، بين رعشتين، يد قصيرة لم تعد أناملها تعرفني، وعين شبه بصيرة لا ترى إلا ما تشتهي أن ترى. أعرف أنك وقفتَ طويلا عند بوابة البحر الأخضر تستذكر زمنا مضى، أشك أني كنت فيه. لم ألتق ببشر يومها، ولا حتى ببعض العابرين في الساحل المهجور. كم كانت شهوتي أن أجري بمطريتي نحو بوصلة قلبك، لكنك، مرة أخرى، كنتَ بعيدا، ولم تر شعلتك الأولى فيّ. حلمي المستحيل أن ألمسك كما يشتهي عشقي لك، وأشعر بطعم حرارتك وملمس الحرير. لا قدر حبيبي فيما حدث، نحن من ترك الصمت يتربى فينا كثعبان. لا خوارق الوهم ولا سؤال. أنت هناك في بعد البعد، لأنك اخترتَ أن تنساني، وحرفت نظرك بعيدا حيث

لا تراني. وانا كما أنا، في دوار الحيرة، لم أرفع يدي بلا كلل نحوك. كنت صديقة عدم اشتهائي وحجّري بقسوة البراكين. هل أغلق الباب الآن بكف ممزقة من انفجاري الأخير، أم أفتحها وألوح لك فقط لتراني وأراك، ولكيلا تمر بالقرب مني بلا التفاتة أو إشارة؟

لا شهوة لي حبيبي، في عمق كل هذه الخسارات، ولا أن أشرّع أبواب البحر في وجهك، وأعدم بالنور المعمي للبصر، ذاكرة حملتك بسخاء كالجنين، وأمحو كل الذين مضوا فيها بلا سؤال، يتأبطون آخر أسرارهم وخفاياهم.

لا شهوة لي يا هبلي في أن أعمي بصري وكأني لم أرك، وأفعل ما تفعله الأحقاد في عمق البشر.

يا أنت يا هذا الرجل الممعن في الغي والتيه، كيف لي أن أعرفك وقلبك مغطى بالرماد. كيف لي أن أستعيدك في زحمة الوقت المستحيل. كيف لجنوني أن يدعوك للرقص الأخير على أجنحة اللهب والبراكين؟ دعني يا هبلي المستعاد، أمنحك حفنة من حصى الرمل وأدعوك لعدّها، لتعرف فقط أن في عمق كل حبة رمل يتخبأ صراخي: أحبك، ويتخفى حنيني إليك. أحبك ولا شيء يعنيني غيرك في هذا المدى الذي اسمه الحياة. عدّني حبة حبة، ثم أطلق سراحي واتركني أمضي نحو

قدري وكأنك لم تعرفني أبدا، وكأني لم أرك في أية زاوية، وكأننا لم نلتق أبدا.

في الجرح العنيف راحة للقلب وهزيمة للموت، فلا تحرمني. ربما ما يزال قلبك عصيا على هذا. هكذا الحب لا يُقسط أبدا، ولا يقبل أي حساب، إما أن يؤخذ ككل بفيض حرائقه، أو يُترك في مكانه إلى أن يأتي من يسحبه نحوه بلمسة أو بابتسامة هاربة، أو حتى بنفاق أو كذبة طرية.

الحب لا يقبل القسمة، فلا تحاول عبثا، فلن ترضي لا عناد البشر، ولا سلطان الله.

يا هذا الذي يرى كل ما يشتهي أن يرى، ويعمى عني إذ لا يراني.

يا هذا التيه الذي يسرقني من غفوة العشق والسكينة، ومن لدغة الخيبة الجارحة. ألم تعرف بعد أنك مهما فعلت، سأظل تيهك المقيم أبدا فيك؟ افصلني عنك إذا استطعت أو اتركني أموت ميتة من تجلى لنفسه فبدا أصغر منها.

يا هذا الكثير لغيري والقليل لي، الكبير في الناس والأصغر فيّ، دعني أجرب ميتة المنتحر، لا قوة لي في أن أكونك، ولا رغبة لك في أن تفهم قلبي. أفرك يديّ بيديك فقط لأدرك كم أنت هنا ولم تغيّبك عني المسافات وجراحات الطفولة، وكم أنت

هناك حيث لا قلب يطالك سوى الحجر وعدد لا يحسى من أمواج الغربة. هكذا ولدتُ، وهكذا أموت، قلتَ وأنت تخفي رأسك بين يديك. أنا أيضا غير قابل للقسمة، أؤخذ كما أنا، او أُرمى في أول زاوية للنفايات. مثلك حبيبي أحلم أن أكون. خُلقنا لبعض، لنحيا مع بعض ونموت فينا. أشتهي مطرا يشبهنا في كل شيء.

أسألك الآن وأنا لا أعرفني، ما الذي أعادك إلى المطرية؟ ألم تكن تكره أن تضع على رأسك سماء غير سمائك؟ اغتسل بي وأهملها أو مزقها إلى ألف قطعة، أو ارمها في علو الفضاءات تأكلها الرياح. ألم تكن مجنونا مثلي، لا شيء يثنيك عن سماء حرة؟ اترك الرياح تعبث بها كما فعلت معي. ألم تكن جسدا تسرقه في كل ثانية موجة هاربة نحو عمق بحر لم يكن يعرف سره؟ هبلا يشتهي أن يكون فوق المطريات لا تحتها؟ لي فيك ذاكرة لا تموت، لا تقتلها لأنك تغيرتَ كما تتغير الغيمة في حضن عاصفة عابرة.

اتركني طفلة، كما كنتُ دوما، أركض وراء حبات المطر، أشربه قبل أن ينام على الإسفلت أو تسبقني إليه برودة الطرقات. دعني أجن بها حتى أراك كما يرى المتعبد مشتهاه.

كن لي وانس كل ما يسرق مني لغتي ونشيدي. كلما هزنا المطر، استيقظ الفجر بين كفيك، واشتعلت أضواؤنا الخافتة، وانتفت المسافات. جرحتني إذ جرحتك، أدميتني إذ نزفتك، أهملتني إذ قتلتك، ظللني بذراعيك فقط، واسكنّي فيك بلا الأسئلة القاتلة، أو إذا أحببت أخيرا، ارمني عاليا مثل الزهرة واستقبلني بقلبك لأنام هناك. لا مكان لي في دنيا التيه إلا القلب الذي فيك، أزرق كان، أو أحمر، أو بنفسجيا، أو حتى برتقاليا، لا يهم، فانتظاري جفّ، وقلبك ممطر.

دعني أستحم في مطرك وأنسى أني أنا.

8 - عطري أنت، دخان سيجارة وتبغ قديم

قلتَ لي أخيرا وأنت تهمّ بضمي: هنا يا قلبي كما في اليوم الأول الذي شق قلبينا بسهمين ووردة.

تريدين أن تعرفي عطري؟ رائحته استكانة في عينيك وشوق لا يهدأ أمام المستحيل. غيمة تفصلنا قبل ان أن نرتديها ونسكن في خيمتها. عطري؟ فرح يشربني كلما خانتني الطرقات، أشربه منك كلما كان القدر سخيا.

عطري؟ حين أستحم بك وتغرقين فيه، ونغتسل معا من خطوات الخوف وسطوة الفراق.

عطري؟ منك أنتِ ينشأ، في أعالي الشهوة والجنون. أما علمتِ بعد أن في عرقك عطر زهر الرمان، ونبتات الشيح البري، وبنفسج البيت القديم، وعطر الحجر الرخو. عطرك من مطر الخريف إذ يأتي محملا برذاذ زمن مضى ورعشة زمن يأتي وآخر بين الاثنين ينتظر. بأشواق التربة وحنين الغياب ورائحة الغائبين.

تسألينني عن عطري؟ حنين الغياب هو، إذ يضيع اللغة وينتسب للتيه. برق الليل حينما يقتحم خلوة الأشجار ويفتح طريقا للفرح في كفِّ الموت.

عطري يا قلبي، أنتِ حين تقفين في المطارات المكتظة ويقودني نحوك دليل لا اسم له إلا أنتِ.

عطري عرقك على ملمس نزيف الغياب حبيبي.

عطري، دخان سيجارة عُجنت بأنفاسك وتبغ قديم.

عطري سحابة انتشاء عندما تسرق الدنيا من أصابعنا، والفرح من دوارنا.

عطري هرب من استقامة فُرضت عليّ كما الموت. كيف يقاوم الجسد المتين تلاشيا محكوما به؟ حافة الخوف مؤذية يا شجني، وموت الصدفة لعنة تصيب من تحاشاها. عطري يوقظني من غفوة الموت، فتعالي نتماهى ربما سرقنا حياة أخرى لا تشبه الحياة.

كل هذا أنت؟ تأسرني باللغة، وبها تقتلني، فأي سلطان عليك يبقى لي وأنا مجردة من كل شيء إلا منك، ومن بقايا عطر يسكن ذاكرتي، شممته أول مرة عندما التقينا على حافة ذعر حل بنا فجأة، وكاد السهو يقتلنا. لم أكن يومها أملك سوى هبلي وجنوني وعشقي الجائع إليك. كنت ملتبسة بشيء فيك. ربما كانت نظرتك الحانية أو عينيك، أو دفئا كامنا في اللمسة والسحر والكلام. هل تتذكر حبيبي، أني لولاك كنت هويت من الأعلى كصخرة بلا روح ولا حياة. خطوة واحدة

كانت تفصلني عن موت أكيد. ربما، يومها كانت الحياة أقوى وأبهى. عندما سألتك وأنا أغوص مرتجفة في صدرك الدافئ: ماذا لو سحبتني الحافة نحو الفراغ وانتهيت؟ ماذا لو كان الموت أسرع من لفتة عينيك. كيف عرفتَ أني كنت أسير نحو موت الصدفة؟ لم ترد وسكتَ طويلا تتأمل البحر والموج وبقايا حنين رمادي كان يرتسم بين الزرقة والزرقة. رأيت الدمع يشق عينيك، ويلمع تحت بريق الموجة التي كانت تموت لتقوم من مائها وملحها، كجبل من ماء. لم أمت يومها لكني أدركت ورأيت كم أن الموت أقرب لنا من الحياة. كم تقربنا المصائب حبيبي، وكم تقتلنا السعادات المبتورة، وتنفينا.

هل لي أن أوصّفك في حمامات العطر التي تشبه القبل الضليلة؟

عطرك سكينة العاشق ودوار المسافر. كلما مسني في العمق، شعرت بك فيّ. أقرب إليّ من حلم لا لغة يتقنها إلا سحره الخفي الذي يكبر فينا.

عطرك مطر برائحة الجسد. دخان سيجارة تحترق بين شفتي راقصة مزقت جسدها لكي تفرح الرجل الذي اختاره قلبها. رائحة من الخشب المقدس المحروق، وعرعار يرسم رجولة جسد، لا ريح تهزه، ولا خوف يسكنه.

عطرك عبادة الجسد للجسد. مس من العبث والجنون. ارتداء اللمسة للهمسة.

لا شيء غيرك يؤنسني. امنحني حبيبي بعض الوقت لأسمِعَك نشيد قلبي المعذب، وامضِ بعدها، إذا اشتهيتَ، نحو مهاوي الفراغ. لا أملك في حريق الدنيا غير سلامك وبردك. متى تدرك أني منحتك كل شيء بلا سؤال ولا حيرة، ولم أترك لنفسي أي شيء. أية مساحة للعودة إلى الوراء. لا وراء غيرك، ورائي. تعرّيت من كل أغطيتي، ومنحتني لك بلا سر ولا عَجَب. طلبتَ منّي أن أتَخَلّى عن الكلّ، حتى عن الغيمْة والشمس، وأتفرغ لك كصنم يُعبدُ في كل ثانية، وأنسى أن لي تاريخا يشبه قلبك، من العواصف والرياح والشموس القلقة، وحتى من المزالق ومن القصص المضحكة. فلا ترعبني بأسئلة المخافر ومحاكم الجهل المقدس. كل ما كان لي، ملكي وملك مداري، أصبح فيك ولك، ولم أبق لنفسي إلا فرحة من يمنح بلا حساب. لم يبق أمامي إلا تبريرات أنا أول من يكرهها قبل أن أسْمعها لك.

أنا أيضا تعبتُ، وسُرقت مني خلوتي، فدعني أرمي بنفسي في حضنك قليلا ربما عثرت على لحظتنا الأولى في بعض خفاياي.

9 - كما اشتهيتُه، يفاجئني مطر باريس

عودتني عليها ثم تخليت في ثانية عن كل تفاصيلها، فماذا حدث حبيبي؟

هل خسرنا هذا الفرح فجأة أم شهوتنا للجميل أكثر، أودت بنا لجحيم صنعناه بأيدينا؟

ألم توشوش في أذني ونحن نتخفى تحت برج أيفل اتقاء لمطر فاجأنا، أصبح سيلا بلا توقف: ها هي باريس تنتفض ضد يقيننا البالي. من قال إنهما عطلة الحواس، بلا قلب ولا تيه العاشق؟ لباريس شأنها الخفي ومواعيد النور المؤجلة. عاشقة بلا خوف ولا أسئلة. لا شرط في الهبل الذي فيها إلا أن تُحبّ كما العاشق إذ يضيّع بوصلة العقل، يتدحرج مثل ورق الخريف نحو دوار النهاية. لا وقت لأمطار باريس ولا زمن لعرس اللون في لباسها. في عز المطر تمنحك شمسا لم تنتظرها وفي ألق الصيف تحلم سماؤها وتندى شوارعها وترتعش أشجارها حنينا وشوقا. يحدث أحيانا أن تأخذنا دهشة الأشياء العابرة، فنتجمد في المكان الذي نحن فيه، نرى ونحس وننتهي في الغفوة وننسى أن المطر يأتي ثم يمضي ولا ينتظر.

غيرتي من كل ما يحيط بك من نور وشهب تسبقني إليك، ترهقني.

حماقتي أحيانا لا تغتفر. تكبر فيّ في كل ثانية ولا أتعلم أبدا من هزائمي. لا ألتفت نحو الحرائق التي تنشب في معاطفي وألبستي الثقيلة، إذ أظن دوما أنها بعيدة؟ حتى عندما تحرق جلدي أقول إنها ما تزال بعيدة. وعندما تصل القلب، تشعلني فأركض نحوك لتخفف عني شعلتها.

لا أتعلم من شيء لأني أعرف أن الحياة تمنحنا ما لا يمكن رفضه.

البارحة كنتُ غبية فأخطأت موعدي مع المطر. هل من عاشقة مجنونة تؤجل مطره حينما يفاجئها؟ عاتبتُ قلبي، لأني رأيت المطر يمر من وراء نافذة المقهى الأنيق، ولم يأبه بي على غير عادته. الذين عرفوه ركبوا نداه وغيمه وماءه، فتماهوا في سماء الفرح الذي لا يأتي دائما، وفي ألوانه السخية. نحن من مدن لا روح تسكنها، الفرح فيها جاف، ونعانق بذراعي الشجر الميت، كل أشواقنا المؤجلة.

نحن نؤذي أنفسنا حبيبي حينما نركب رأسينا، ولا نعرف كيف نحب.

كيف لي أن أغفر لي مرور المطر على مسافة خطوة مني ولم يبللني. لم أدرك حماقتي إلا عندما طلت شمس تنبئ بأن المطر

الذي مر من هناك، قد غاب وانتهى في سلطان الشوارع البعيدة. وحتى عندما خط قوس قزح نهدي السماء بسيف ملون لم يبق أمامي إلا أن أغمض عيني أملا في عودة المطر. يعلم الله وقلبي الصغير كم اشتهيت أن أتعلق في ذراعك حفنة من الألوان وحنينا لا ينتهي، وأمضي عاشقة تحت مطري الذي في قلبي ورأسي. يمكنني أن أمشي برفقتك في عز الحر، في أعزل شوارع الجنوب الرملي، وأتخيلني تحت مطر أصنعه بقلب طفل وبلل غيمة، وألوان الغسق.

لي الحق في أن ألمس خيبة المطر كما أشتهي.

اليوم مثلا وعدت نفسي كمن يقسم على ورق مقدس، بأن لا أتركه يمضي بدون قبلة المجنونة عليه. المطر في أرضي ليس ماء، لكنه حظ لتستيقظ الروح من موتها وتخرج مثل الحلازين من صيامها. المطر في أرضي يبلل التربة، لكنه يمضي بي بعيدا نحو كل الأبواب الموصدة بجفاف الوقت، ويهوي الغرف الميتة واحدة واحدة.

لباريس طقوس العاشقة، ولأمطارها انتظار المطريات الملونة.

منذ فجر سماء اليوم، كانت باريس تودع شمسها الباردة. قطرات صغيرة تسابقت لتلون قلبي وكل بقايا الجسد المنهك وحرائقه. سعيدة كما النجمة في رفعتها ونورها. عثرت أخيرا

على باريس التي أهوى، فأنا سجينة أناشيدها وخرافاتها ووردها ومقاهيها وناسها إذ يخرجون في ألق الألوان بحثا عن لمسة أو لحن أو جنون ما في مسارحها. اجتمع في باريس كل مجانين اللون والهمس، دالي، بيكاسو، ميرو، وأغاني إديث بياف القديمة، وأسماء أخرى تدفئني كلما جمدني الصقيع.

لمطر باريس طقوس العاشقة ودلالها. تقطف حبات المطر من سماء باردة، كلما فُتِحت النوافذ، وترميه من الأعلى مثل ذرات الملح على رؤوس العشاق، لتحفظهم الأقدار من العين القاتلة.

فيك بكلي، خارجك أذبل بسرعة الجليد القاتل. فلا تلمني يا هبلي. مطر باريس ليس ككل الأمطار. من حقي اليوم أن أحلم بك، وبها، بالغيمة الملونة، بأنوار الشوارع الخلفية، التي تضيء سحر القلب. أشتهي كما في كل مرة، لقد تعودت على حماقات طفولتي، أن أدعوك حبيبي للركض معي ونسيان كل الخوف الذي يلبسنا. نتخفى تحت جسر العشاق السخي ونحتفي بالحي الذي فينا. ننسى لثانية أو اثنتين، أن قدرا غير محسوب يكبر الآن وهجه فينا. أتشبث بلباسك المندى بالحب والشوق الجميل، وأحمر الشفاه المرتسم على شفتيك ولباسك ورقبتك المعطرة بشذى النبات البري. ألتصق بك للمرة الأخيرة قبل أن يتوقف المطر.

هذا المطر ينزل الآن من أجلي، فيه حكاياتي وقصصي الصغيرة.

هذا المطر الذي ينقر مظلتي الآن يسحبني من يدي ويضعني فيك.

هذا المطر الدافئ كما القبلة لي. أنت أيضا لي، شلال من النور، ودفق من الهبل المشتهى.

حتى باريس التي أرى الآن، كلها لي، عرش من الألوان، وعرس من الماء.

أنا سيدة المكان والمطر، لن أقبل أن ينافسني فيك حتى ظل امرأة.

امنحني فرصة أن أحيا وأموت فيك.

كما اشتهيته، يفاجئني مطر باريس، ويدفعني بجنون نحوك.

10 - هذه المرة لن يخطئك قلبي

أنا ما زلت هنا حبيبي على حواف الانتظار. أعرف أن هذا طريقك وأنك ستمر حتما من هنا.

أنت لم تتأخر عن حبي ولا ثانية منذ أن أدمنتك بلا رفق على قلبي، وعلى جسدي. لا أجمل من جسد ينتفي في معشوقه. هل لي الحق في التمادي في غيك المجنون؟ أنا قدمت عقارب الساعة بعض الوقت لكي أشبع منك قليلا، ولكي أذل وقتا يسرقك مني كلما غفوت فيك. هذه المرة لن يخطئك قلبي، لأن اللحظة التي فتحت عيني عليها، مفعمة بالزهر، وتربة الأجداد، ووجهك، وصراط لا أريده مستقيما.

عمري الآن زمن إلا بعض السنوات من الشوق والهبل المخبأ لك. ستقول عن بوصلتي ضاعت، أو مستها صاعقة الوقت. ليس مهما. قل، ولا تترك ضحكتك وحريقك في داخلك، يشتعل. قل فأنا ما زلت هنا لا شأن لي سوى أن أسمعك.

هل تدري يا رجل الجنون، أنه من فرط جنوني عليك، نسيت هذا الصباح كل مواعيدي الأولى مع المطر، وقوس قزح والشمس اليتيمة. نسيت قماطي وحليبي وغفوتي. نسيت

حتى طفولتي التي تتبعني منذ عشرين سنة، وأكثر، واكتفيت بأن شربتك لأول مرة كما كأس السكر الأخيرة، وسكنتك أبدا، واستسمحت القدر أن يتركك لزمن قد يستمر دقيقة وقد يتخطّى عمرا والكثير من السنوات. استحممت بضوئك للمرة الأولى كما يفعل أتقياء الروح، كنت في حاجة لأن أراك تحت النور وخارج المدار.

يكفيني أنك هنا، أشكّلك كما الشهوة تريد، في كل ثانية، بحرارة أصابعي وهوسي وحنيني إليك. العمر واحد ليس أكثر، هدية يمنحها الله في غفلة من ترددنا، ثم يسحبها وقت يشاء.

معلقة أنا بين سمائي الأولى وأرض جدي وأمي مثل نجمة الفرح. لا شيء يملأني سوى أن أراك في عز يومي الأول، كما تعودت أن تفعل معي وأنا في رحم التربة، أو في حلمي. تأخذ كفي اليسرى دائما لأنها الأقرب إلى القلب وتمضي بها نحو قلبك، وتتمتم: هنا أنت حتى يستعيد الله نوره وظلماته الكثيفة، أراضيه وشموسه.

هنا، كما الطفلة الضائعة في فراغ الحنين، تتفقد خطوطي، تتحسّسني كما الماء الثمين في عمق الصحاري، ثم تعلن كالساحر: **سيغمرك الغيم غدا وأنت تمسين على ساحلنا المنسي، وضباب البحر وموج المنافي.** أي منافي حبيبي،

ونحن هنا معا في أرض رطبة وشهية مثل التمر المعسّل، فمن يمنعنا منها، ومن يملك حق إزالتها؟ تواصل وكأنك لم تسمع فرحي: سيدفئك شعاع الفرح المتسرب من قلب حبيبك وعينيه. سيغطيك بكل فصول النور وظلال الغيم والريح. ثم يرمي على رأسك بخور الأولين لتفادي حقد العين، ويقسم أنه رأى ما لم تريه أبدا. يتمتم في غفوة عينيك: وأنتِ يا أنتِ، أرى في رعشة العينين رجلا مشبعا بالحنين وعطش البحار، وجوع الشجر، يمشي على الماء، يكبر فيك كل يوم قليلا حتى يصبح خوفا. ألملم شتاتي، وأهمس في أذنيك وقلبك حتى لا أضيع فرصة أن أكون فيك: حبيبي. روحي التي لا تموت ولا تصدأ. أي خوف وأنت هنا؟ أي تيه وقلبك كله لي؟ فمن يقاوم حبا يأتي من نبع الشهد وملح الموج وخطوط الغواية؟ تتحرك كما الريشة في مهب الريح بين حافتي الحياة والموت: هو هنا. يسير على قدمين من جمر. رجل آتٍ لا ريب فيه. ينزع عنك قماط الأنثى ويمنحك جسد امرأة صافيا كفجر البلاد التي فيك. يمنحك للريح تنحت خوفك وتصفيك من العزلة وألبسة السترة. يسكت جوعك بالخبز الذي ترتضين، وبحليب مسروق من طيور الأنبياء ودفء الضوء في عتمة الوله، بجسد خلق ليكون ملتصقا بك. وحده، ذلك الرجل

الغريب، يعرف كم أنك فيه، وكم أن حياته ظل مذعور، بلا ضحكتك الأولى. كلما حل يومك وشهورك الأولى، تذكر أن الدنيا صغيرة، وأن البحر نهر من الاحلام، والوصول اليه لا يتخطى ثانية الوقت. غدا عندما يطل يومك الثاني، سيأخذك من يديك، ويعبر بك كل القيامات اللصيقة بلحم العذراء، لا شأن له إلا أن يشتعل معك وراء حلم الجنون، وجدار الرجفة. يكسر حواجز الحجر الرخو والصلب وبعض فولاذ الخوف، ويمنحك حرية الطير. ثم يقف أمام عينيك عاريا كما جاء إلى الدنيا أول مرة: ها أنا ذا بكل ما ملكت من إيمان بك. هيتَ لكِ يا هبلي الأول والأخير. أنا أحبك، وماذا يمكنني أن أفعل غير هذا أمام سلطان لغتك السخية؟ نحتفل بعرس لا دم فيه، سوى بعض ماء، وورق، وتفاح لإنعاش غوايات الجنة المسروقة. هل تدري حبيبي من فرط جنوني بك، توقفت اليوم عن التفكير. وحدك تحتل القلب، والخلايا الحية والمحتضرة، وتلك التي في طور التكوين.

وحدك الكل والكل فيك أنت، أرضي البكر وسمائي التي لم تمسسها حتى يد خالقها. لم يبق أمامي من هبل، ولا من عمر إلاّك. لا حلم لي سوى أن أشتهيك بلا وقت، ولا زمن، ولا سلطان. بدءا من ثانيتي الأولى حتى ساعة السفر الكبير.

الآن سأعقد على قلبك، وأستفرد بروحك. فقد أنبتّ في جسدي قطرة الغواية، وغيمة الشهوة لأصبح أخيرا شريكتك في المعصية المثلى.

لا طريق لي الآن سوى أن أسكنك فيّ، وأحبك بلا هوادة.

لماذا حبيبي كلام الحرقة، المنافي والخوف، ونحن هنا في دوار الشوق والفرح؟

11 - كانوا هنا، ثم مضوا

كيف لي أن أعرف أنك مضيت، وأن العمر بيننا، أو بعض عمر هرب بعيدا كما الفجر يخرج بلا فرح ولا استئذان؟ هل لي أن أسأل عنك اليوم، فأنت لم تودعني ولم تخاصر قلبي بقلبك، ولم تدنه منك؟ هل لي أن أصرخ حتى تعرف أني مازلت هناك وأن يدك لم تشد قوسي كما اعتادت؟ يا أنت يا هذا الشجي، يا نشيدي ولغتي، كيف تمنحني الحياة بيد، وبالأخرى تسحبها؟ لي الحق أن أقول لا. ولا مرة أخرى. ولا ثالثة عليها تصلك. لم تعودني حبيبي على هذا.

خطر عليّ وعليك أن نترك العمر يمضي أو يؤول إلى سراب. خطر عليّ وعلى القلب المستعاد مرات عديدة حتى الكسر والألم الكبير، أن أصمت عن خوف يسكنني كما لو أنني سأموت الآن.

من لمعة الشمس الأولى وصرخة الولادة، إلى بياض لا يأبه بالوقت ولا بما يرضينا، نأتي ثم نمضي. هل نقبل بهذا وكأن شيئا لم يكن؟ ممتلئة ويصعب عليّ أن أمضي نحو الفراغ، وحتى نحو السماء، فأنا سأنفجر. لا طاقة لتحمل ألم آخر كيفما كان لونه وميزانه. نعم، كما كنتَ تقول، الحب أن نكبر في الآخر وكأننا هو، ولكن الحب أيضا أن نمضي فينا حتى انتهاء

المسافة، ولا نسأل عن الظلمة التي في الداخل ولكن عن النور الذي يسحبنا نحو المخرج. لكل الأنفاق، مهما طالت كثيرا، مخرج يمضي بنا نحو حياة تشبه الجهة الأخرى. العين لا ترى دوما ما يجب أن يُرى لذا عمقها مظلم وذاكرتها متعبة.

كيف كنا يا شطط الروح، وكيف أصبحنا اليوم؟

كيف مضينا بسرعة النجم، وكيف انتهينا إلى رماد؟

أنظر انظر معي كم تغيرت الأشياء، وكيف انتهت؟ عددا لا يحصى بدأنا، ثم أصبحنا بأصابع الكف نبحث في التيه عن طرقات تجمعنا، ثم أنا وأنت فقط في عمق منافي الروح، ثم لا أحد سواي وسواك، كل منا في عزلة الغي واليقين. أنا في تيه العاشقة التي لا ترى سوى ما تعودت عليه، وأنت في خلوة الظلال، تصدق عيناك كل ما يمضي بهما نحو دوار حياة لا أحد يضمن استقامتها. لقد مضى زمن كبرنا فيه وطوح بنا نحو فراغ نحن صنعناه. لقد ذهب الذين أحببناهم بلا استئذان، وها نحن نمضي بالخطو السري، نحو أجل يرمينا في كل مرة على حافة المخاطر، نتحداها، نداري أننا انتصرنا عليها، ثم نواصل سحرا يتخطانا ويمضي بنا حيث يشاء.

كم كنا، وكم شاء لنا القدر أن نبقى؟

نسينا جميعا أن العمر يمضي بلا انتباه لما يأتينا في السر والظلمة. هل نحن حبيبي سادة الشأن كما يتراءى، أم شأننا ليس لنا، يُخط لحواسنا في غفلة منا.

أخطئ معي، لا شأن لك بهذا، لكن دعني أستعيدك لي منك. خروجنا مبكر مع رحيل الفجر، لم يرحني، لكن عودتك تفتح أمامي شهية السؤال. عد ودع ما كان، يكون. وما انسحب ظلما، يعود.

المسافر المخيف ليس من يحمل حقيبة ويمضي نحو مدن يرتادها لأول مرة، ولكن من يحمل قلبه، وحنينه، وبعض عطره، وبقايا حواسه، ويمضي في درب النجوم. يسير بلا وجهة ولا مرافئ معلومة. لا يسأل من يصادف في طريقه عن مكان الاستراحة، أو مأوى لليلة أو ليلتين. يمضي في درب النجوم، وينتهي عندما تغلق السماء أبوابها، فيرمي بنفسه من الأعالي في شكل خط من نور يتحول في الثانية نفسها إلى رماد بلون التربة المحروقة.

أخطئ معي ولا تنس أبدا أن النور الذي فيك يجب أن يظل مشتعلا، ومَنْ غيري من النساء تعرف كيف توقد فتيلة الروح، وهبل اللحظة؟ اذهب أنّى شئت، فالأرض تفاحة تدور، كلما جعنا اقتربنا، وكلما أكلنا منها زاد فينا وهج الجنون.

لو فقط تدري كم يرميني هذا الليل الحزين فيك، وكم يسحبني نحوك؟ توقف قليلا فقط عن التفكير، وانتبه لجرحي النازف، وجنوني السخي. وحيدة، كما لم أتعود، أنتظرك في عرض الطريق بجنوني المعتاد، أنام في موسيقى الأنوار والليل وهبل العاشق. المارة يعبرون ثم ينتهون في الظلمة، وأنت لم تأت. أنتظرك منذ زمن وغيابك يكبر، هل هي مجرد نسيان صغير، أم قصة أخرى لا أعلم سرها؟ أنتظرك لأني أعرف أن التصاقي بقلبك ليس رهين نزوة. عندما تصل، نبهني أو اترك قلبي يخمن ويشمك. سأوشوش كما لو أني أفعل ذلك لأول مرة: حبيبي، اسحبني نحوك والصقني بك لكيلا أموت في منفاك. شدّني إلى قلبك، كي لا أطير، فأنا يحدث أن أصبح ريشة في مهب الريح. كما القوس أنا ألتوي بقوة الشدّ، فاسحب ما وسعك الجهد، عندما تسمع نداءات الكسر، توقف قليلا، وانظر إلى عيني للمرة الأخيرة، قبلني ثم ضمني كما يفعل العاشق المسافر نحو الحرب، ثم اسحب القوس أكثر، ولا تأبه بالكسر هذه المرة، ودع سهم العمر يمضي حيث مشيئة القلب.

غيابك حبيبي يكبر كما جرح العاشقة، كيف لي أن أمضي فيك بعد أن مضيتَ؟

كم أحتاج إلى أن أسرّ لك بحزني فقط لكي تفهمني. كم أريد ما لا تريد أن تشركني فيه. أحبّك، وأصنع للوهم الذي فيّ، بيتا

من غضب صغير، وخشب الصندل المقدس، وحنينا يرفض أن يكبر معي، وانتظارات لا شيء يمنعها من زجّي فيك. إن الذي فيّ شعلة أنت مصدرها، وحرقة ختمها على الجلد، نسيانك لي، فلماذا يا هبلي لا تتذكر أن لا شيء يقتل عاشقة مثل نسيان قلبها معلقا في الفراغ.

أنا لستُ مثالك الأجدى، ولست امرأة المستحيل، مجرد غيمة بحجم الكف، كلما غاب اليوم، مدت يدها تصافح شمسا غائبة، وتدعوها إلى المجيء بسرعة. تكبر المدن بعشاقها، وتصغر بأحزانهم، فلا تقتلني بحزن لم أعد قادرة على تحمله.

هنا لا شيء تغير في غيابك، ولا حتى انتظارك. كل شيء كما كان، وربما كما سيكون.

أن تنتظر العاشقة رجلا لا ساحل له، عليها أن تصبر على كثرة السحب العابرة. عليها أن تتحمل انطفاء قناديل المدينة واحدا واحدا، وتكتفي بأنوار القلب الخفية. لماذا كلما التفتُّ نحوك يا هبلي، وجدتك أضفتَ مسافة أخرى للغياب، وابتعدت عني بزمن لم أعد قادرة عليه، وبنيت في الانتظار رمادا في مهب رياح الحنين؟ لماذا كلما أمطرت مدن جمعتنا في عشّ أسرارها، شعرتُ بأنك تُفرغني مني، وتحتلني كما عناد عسكري مجنون باحتلال قلعة قاومته حتى الاندثار.

هل تعلم يا رجل الغياب، كلما لامستني قطرة مطر، شعرت بأصابعك تعبرني كما لو أني أكتشف أسرار جسدي للمرة الأولى؟ هل تعرف حبيبي معنى أن تلمس أصابع مرتجفة سرّ امرأة عاشقة؟ لا تعرف. أعرف أنك ابتعدتَ كثيرا ولم يعد يعنيك ما يحير قلبي وشمسي. الأصابع التي عبثت بجنونك من فرط تكررها، أصبحت عادية.

هل تعلم يا رجل النسيان الكبير، أن الملمس الأول مثل خاتم النار، لا رياح تمحوه ولا عواصف تعريه. الذي أيقظ جنون المغطى بألف غلاف، لن يتذكر إلا من فك قيده للمرة الأولى ومنح الجسد المسيج، حرية من حرير. ليس الوفاء يا هبلي من يقودني نحو هروبك، لكنه الحنين إلى صرختي الأولى التي أسكنتها الأقدار فيك.

دعني فقط أقترب منك قليلا، لأسمع، ولو عن بعد، صداك.

كمْ أريد الآن أن أسير نحوك كما الطفلة التي صادفتها أول مرة في المعبر المظلم، أو قرب مسجد خرجت منه راكضة تسحب وراءها خوفا لم تفهمه أبدا، فغفت بين ذراعيك ونسيت أن الحب ليس ذنبا يرتكب. سحبتَها نحو نور ترى ألوانه للمرة الأولى.

حبيبي. يا رجلي المشتهى. كم أحلم أن أحيا وأموت في ظلك،

لكني لم أعد قادرة، لا على تحمل الظلمة ولا المسافات القلقة. كنتُ مثلك، المسافرة بلا مرافئ ولا حقائب، فأصبحت المقيمة في ذاكرة الغياب. لقد ضيعتُ وقتا كثيرا للوصول إليك. كنتُ، كلما أصبحت على بعد ساعة منك، ابتعدتَ أنتَ بمسافة يوم، أو شهر أو سنة. أو ربما بمسافة عمر. وكلما مددتُ يدي نحوك، بدوتَ لي أبعد من زمن لا نعرف أسراره.

أنا أيضا أتعب عندما يفقد القلب جناحيه. كم أشتهي الآن أن أطير.

كم يريد القلب أن... وكم يشتهي... لكن...

دعني أكتم خوفي، فقد تخلّت عني حتى لغتي.

كيف لي أن أعرف أنك مضيت، وأن صداي ليس إلا بقية عمر.

امنحني بعضا منك، لكي أستمر فيك.

12 - عطر العاشقة

كل الأصوات التي تكلمك سرّا في غيابي، كاذبة. تسرقك في كل ثانية نحو مدافنك العتيقة. أصرخ ملء قلبي كيف يمكن أن يحدث هذا؟ أتمادى في لحظة خوفي، فلا انتظار بعد الانتظار. أدرك سلفا في شطط الغيّ وتيه الأسفار، أن صوتي سيمكث هنا حيث هو الآن. حيث لا أحد ينتبه لي أو يراني. لن يصل كما تعودت رياح القلب أن تسحبه من ظلمة الاقدار، وتلقي به في عرض الحياة.

بي رغبة العاشقة في أقاصي الجنون، أن أطير مثلا نحو سماء أخرى، زرقتها من ورق التوت وخيط الحرير، ودهشة المسافات. بي شوق لا أرض له ولا حنين. أريد عاصفة تشبهني في كل شيء، لأنأى عنكَ قليلا، وأصبح غيمة بلا رياح ولا مطر ولا هزات الرعود. أشتهي سماء لي، وحدها تعرفني، وتعرف سري الكبير وتحفظه، لا تشرك بي أحدا. سماء بلا شمس كاذبة، ولا بشر ينتظرون برزخا يأتيهم على جناحي اليقين، في عز جحيم يقيم في خوفهم منذ الولادة.

هناك حيث أنا وحدي، في شرفات المستحيل، أزرع بذرتي الفريدة. تنشق لتنبتنا معا في جسد واحد وقيامة شبيهة بنا وجنة نصنعها كل يوم. هناك حيث اللاشيء يكبر، والشيء

الخفي والمتخفي يظهر. كلما وجدت مسحوق الوقت في يدي، مررت على جنتهم، ولوحت لهم ثم أمضي بلا أسئلة ولا خوف ولا انتظار. حتى لو كانت بنقاء الثلج وشدو العصافير، لن أدخل جنتهم لكلا أطرد منها ثانية بعد أول حماقة، بعد ساعات، أو بعد حين. لقد كبرت على لذة فضّ عذرية اليقين.

يوم خرجنا أنا وأنتَ من رحم الزرع وبذرة الخلق الأولى، كنا واحدا في اثنين، والآن أصبحنا ليس كما ظننّا، وحيدين في اثنين. في الولادة الأولى قادوني نحو منأى بعيد ونسوا أننا كنّا فينا مجتمعين. أبحث عنك خارج المجرات والأكوان وظلمة المنتهى. يقيني أنك في الهُنا، وربما في الهُناك، أو في كليهما معا كشهوة المستحيل.

لا شيء يملأ رأسي الآن إلا الرياح التي رمتنا بعيدا نحو مدى المسافات، وترميني الآن على بعد نفس من قلبك ومنك. تمرّ مسرعا، غاضبا، شهيا، كما النجمة الضائعة في المدار. لماذا تفعل بي هذا في عز تسامي الفرح والحنين؟ ألم أكن جديرة بك يوم أنجبتك من أنين؟ أغمض عيني كما في طفولتي، وأفتح أصابعي حيث أراك بين الفجوة والفجوة، ولا أحد غيري يراك. أمشي مقتفية خطاك الهاربة، دليلي الأوحد والوحيد، قلبك الذي غيبته ظلمة الرحيل، وعطر العاشقة الذي لا

تخطئه ولو كنتَ في عمق جنة أو عبق حديقة الله والملائكة.

أريدك مثلما يريدني من يطلب الحياة حتى لا يختنق في منتصف الطريق. بعطر العاشقة نحيا، وفيه نبني المستحيل. فيه ننشئ سماء جديدة وأرضا باتساع كفيل، وحبا كل يوم، وزرعا ينجب زرعا ثم ينجب زرعا، فعاشقيْن. اثنين في واحد، لا أحد بعدهما سوى غيب له سرّ فينا ولا نعرفه.

هبل يأتيني الآن في غفوة العمر وغفلة الحياة. كم أكون سعيدة يا هبلي لو استطعت أن أنام فقط لأنساك قليلا، وأتركني أنام وأغفو مثل ميتة.

كم أحلم أنك لستَ هنا، في الداخل تكبر وتنتشر حتى تحتلني كقلعة مغلقة.

كم أتمنى أن يكون لي قلب آخر غير الذي أملك، لأستطيع ترويضه منذ البداية. يأتمر بأمري، ويطعني كما كلما أتاه الأمر مني.

أنا أعرف أنك الرجل الكلي والمستحيل. أعرف أنك تكره أنصاف الحلول ولم تتخل عن دهشة الطفل فيك. قلت لي ذات مرة ونحن في ظلال مدينة بعيدة. " لماذا كلما وقفت على هذه الحافة أستمتع بالسماء والأمطار، هزتني الحيرة. هل أنا هو، أم هو أنا؟ كيف لهذا الطفل المعاند أن يكبر في غيابي، وكيف

له أن يهرب مني، نحو المستحيل؟ كان قطعة من الصدفة، وفوضى الفراش، فأصبح ملمسا ومدينة. خُلقنا واحدا أحدا، لم نتمزق في الرحم إلى اثنين. لم تقتله الأمراض، ولا أكلته الذئاب، ولا استسلم للجوع وخديعة الأقدار. كيف لهذا الطفل أن يكبر خارج الصراط المستقيم، ونظام الدنيا الصغير؟ كيف له أن يهرب نحو الحمام ليتعلم منطق الطير؟ كبر كثيرا حتى تحداني ولم يعد أنا، ولم نعد نحن؟ فما الذي تغير فينا؟ كلما وقفت على هذه الحافة، أغمضت عينيّ، واستسلمت للريح والمطر."

لا أملك إجابة ترضيك، ولا سحرا في خاتم قديم. لا أعرف كيف أرضيك وأرتضيه. يمكنني أن أشهد على الطفل الحي فيك. كان هنا، لكنه عندما رأى الحياة قد سرقتك في غفلة، انزوى فيك طويلا، لكنك لم تره. ذات فجر ممطر غادر عزلته وتاه يركض نحوك في زمن بعيد. رأى تربتك التي نزلت فيها لأول مرة. نام تحت شجرة الجد الأول. ثم مشى نحو جبال القلب التي كانت تسمعك وأنت تنشد النشيد القديم.

نعم كان هنا، لكنه مثلي، تعب من كثرة الانتظار.



13 - لستَ في حاجة لقتلي، لكي تكتُبني

لستَ في حاجة لقتلي لتكتبني، يا هبلي، فلست عصية على اللغة والحياة. تكفيني ثانية فيك من الجنون، لأكبر وأديم الفضاء والمساحات وقتا طويلا. أملك السماء بلمسة الفرح ودوار الأرض وعرش الريح، والمطر والغيم. لي بعضٌ من عمر نوح لا يفنى، ونور قناديل البحر تضيء الروح بصمتها، وبعض نور يأتي من قلبها، كلما أظلمت الدنيا.

لي في أعالي الجبال مسكن، ومن روح الطير حلم الأقاصي. لا تقل لي إني مغرقة في حلم لا يستقيم، فأنا في رعشة قلبك أكبر في كل ثانية إن أنت أردتني، وأنتفي فيك رمادا، إن أنت رفعت يدك عني حبيبي. دفنتُ فيك كل أسراري الصغيرة، ووسعت قلبي حتى احتواك، فقط لتكون سري الأعظم، فلا تقتلني.

أحيانا لا أراني أنا كما عرفتُني قبل حقب مضت. تنازلت عن كلي لكلي، تخليت عن بعضي لبعضي. لم أترك من هويتي سوى ما يهواك ويمنحني لك، ويغيبني فيك. لا أعتقد أن امرأة في الدنيا صنعت بي ما صنعته أنا بك. ولا رجل احتل داخلي كما فعلتَ معي، فكيف تشتهي اليوم تيها لا يشبهك؟ كل ما فيك تيه. أتمناك تجلس يوما معي وتحكي لي عن شجن

أخفيته عني. لماذا كلما وجدتك بعد أسفار العمر الشقية، انسحبتَ بسرعة، وصنعت حولك غلافا من خوف وأنين؟ وطوحتَ بنفسك، بلا رحمة، من الأعالي، ومضيت نحو غيب يشبه موتا لكنه ليس هو.

كل شيء سكن مثل أخبار الليل. كل شيء مات كما فجر مغلف بأخبار الخوف. لا رياح لي اليوم تقودني إليك، ولا غيوم تخفيني عن الأنظار حتى أصلك. أشعر أحيانا أن جراحنا اختلفت، ولغتنا لم تعد كما كانت. غاب عنها شيء يشبه الجنون ويقين الكلام. أشواقنا لم تعد كما كانت، صغرت كثيرا ثم اختفت. ما الذي تغيّر فيك أو فيّ؟ ما الذي لم نعرف كيف نسرق سحره؟ ألم تقل لي ذات ليلة باردة كم أصبحت اليوم بعيدة: لا موت يفصلنا ولا حياة تنسينا. قدر عبثي أجوف، تخلّى هنا. وضعنا في المسالك الأكثر قسوة، ثم تخفى وراء الصخور ينصت إلى البراكين وهدير الموج. لكننا بالرغم من حواف الموت، التقينا.

أنا لا أعرف تيهك الذي تسلكه الآن، بأي اتجاه نمضي، وإلى أين نسير؟ علامات الغيم والنجوم ومعابر السماء، كلها مغلقة كما القلب الميت، فأي يد تلتقطني من جديد وترميني فيك. هل لهذا الشطط معنى أو لبقاياه سحر ما؟ الم ألم تدرك بعد حبيبي أن الحياة بدون لمسة قلبك وهمسة خوفك، سجن

كبير، بلا روح ولا ذاكرة؟ وأن طعمك حياتي بلا ميزان. لا رغبة لي سوى أن أراك، أن أعبر سماك. أنت قطعة من تيه وضياع، كل ما فيه ظلمة، تكسوها ظلمة، وتنام فيها ظلمة أخرى، لكن بعد الظلمات نور. لماذا تضيف ظلمة مخفية في الأعماق لتطمس الشمس الأخيرة؟ أنا هنا على الحافة الأخطر، قاب جنون أو أقل، لستَ في حاجة لقتلي لكي تكتبني. تخيلني كما تتخيل فرحة عاشقين في لباس واحد.

اكتبني كما الشهوات إذ تأتي مثل موج هادر، لا حائط يصده أو يسرقه، ولا امرؤ يقارع سلطان سيفه. اكتبني حبيبي بلا انتظار، كل انتظار هو موت صغير.

اكتبني كما العاشق يستعير أثر الطير، وهديل الحمام، ونط الغزال، إذ يقفز عاليا ليحس كم أن الأرض لا تكفي فرحا خصته به الصحاري.

اكتبني كما الصوفي، ينام ويستيقظ على تراتيل الروح، يستعير أناشيد داوود، وأنين المسيح، وسرّ الخفايا في الكتاب الكبير. وحده يعرف كم أن الأديان رياح ساخنة، كلما سكنت القلب سحبته نحو قيامتها.

اكتبني حبيبي، كما لم يكتبني أي رجل مرّ بالقرب مني، وبكى طويلا قبل أن يتيه في المنافي، فقد وضعتك الملائكة فيّ كما

السرّ الدفين، وكل حياتي رهنتها بحثا عن دليل لا غيرك استطاع أن يكونه، فلا تقتلني يوم عثرت عليك أخيرا، في كتاب قبل أن أراك، وتنشئ لي المستحيل. أنا امرأة من ورق الريح، وهباء اليقين. شرع نوافذك حتى الصباح. وافتح بابك المسدودة، إذ ينقرها الطير. افتح أسرار قلبك، ودع الشمس تنام في فراشك، وتستعير وسادتك، وتسكن حنينك. اسحب الستائر التي تظلل حلمك بالسواد، وتقتلك في صمت وتقتلني معك.

أنت لم تخلق لهذا حبيبي، فأنا لن أكون إلا لك. الحياة مساحة من حنين، تأتي ثم تغيب. افعل كما يهمس لك قلبك، ولا تخيب ظن ما نوى وظن فيك. كن هبلا كما عرفته منذ صنعنا من دنيا عابرة أملا جميلا. افعل كما لو أنك تفتح اليدين، وتترك نورهما يمضي بين الأصابع والكفين. لا شيء أكثر جنونا من لمسة عاشق قادم من تيه ويستعد لضياع جديد، يلامس القلب برهافة الغيم فقط ليرتاح قليلا، وربما ينام ريثما تتفكك العاصفة، ويمضي محملا بكل ما سكن فيه. ثم يستيقظ فجأة كما لو أن الروح تعلو وتتمسك في هشاشة الغيم، وتتسع حتى تصبح سماء أو مدارا.

هذه معصيتي الأخيرة وبعدها سأقبل بسلطان الأقدار: لن أتركك تمضي كما تشتهي بدوني. لن أسلمك مفاتيح الأسفار الشقية، نحو تيه بلا معنى ولا فرح. ابق هنا حيث نبتنا أول

مرة، ولنجعل من خراب الأرض والتربة المحروقة، حديقة. وإذا أصررت ومضيت قبلي، سأكون هناك قد عبرت البرازخ قبلك. سأطلب من خالقي الذي علمني أن الحياة ثمينة، وأن البشر أغبياء، أن يغفر انتحاري، ولا أقبل بقدر أن أكون حورية لغيرك.

أنا سيدة العزلة ومطر الغرباء. أهرب نحوي بلا ندم، ومساحة الخلوة تكبر فيّ كما سراب الرمل والغيم اليتيم. لا أحمل في حقيبتي المتعبة إلا قلبي الصغير، وظلالك التي تغيّبني كل يوم.

كم مرة يا هبلي يجب أن أصرخ: أحبك، أحبك أكثر، أعبدك، فقط ليكبر يقينك فيّ، وتزيح ستائر قلبك لنرى الشمس والقمر والأكوان السرية، معا.

كم من مرة يجب أن أقسم برأس أمي لتصدقني قبل أن أنام في ألمي؟ تعبت، وغامت كل سبلي. أسافر نحوي بلا وجهة ولا دليل. مثلك، تعبت من السير على قدم واحدة.

مثلك أحلم أن أكون كما أشتهي، وقبل أن أمضي نحو معصية السؤال.

14 - سافِرْ حيث تركض خُطاك.

سافر حيثما شاءت أقدارك. امض نحو النار التي تكبر فيك كل يوم أكثر، فلا شيء يميت مثل صمت اللغة، ومنافي العزلة. اسرق من الحياة ما تشتهي من فرح وخيبات وحرائق، لكن لا تنس فقط أن هناك امرأة ليست ككل النساء، لها خوف يكبر كل يوم، ككرة النار، عليك أن تحس به قليلا. كلما ركبتَ مرفئا جديدا، أو مطارا بعيدا، كبرت حيرتي فيك: كيف لهذا الرجل أن يمضي نحو الحياة وهو ينتحر كل يوم قليلا؟

سافر أنى شئتَ حبيبي، ولنضرب موعدا في أفق الغياب، على حافة خليج الغرباء. هناك لا روح تتجلى إلا أنين من سكنونا ومضوا في الريح التي هبت نحو نجوم، كلما أعددناها، زاد يقين الشوق لهم. هل تعرف خليج الغرباء حبيبي؟ هل نسيت دوار البحر وحزن الموج والسفن القديمة التي تنام هياكل منسية على حافة البحر؟ مساحة الشوق المسروق لناس مروا من هنا قبل زمن، وخرجوا بلا غطاء ولا ماء. تربة جافة في أكفهم، عندما ماتوا، عادوا بها نحو سماء لم تكن رحيمة.

لا أريدك أن تخرج قبل أن أراك. لي رغبة فيك كما جنون النخيل لعطش التراب. قضينا عمرا سخيا نركض وراء ظلال

بعضنا، كلما التقينا، افترقنا. يهرب كلنا نحو بعضنا، وينتفي بعضنا في كلنا، دون أن نكتمل يوما. هل كنا نرفض في عمق الروح أن نظل هكذا، لأنه بعد الاكتمال تتحلل تماثيل الرمل كلها؟

يبدأ الموت الصغير وعناق الأبدية. ما نفع لحظة تخلدني وأنا لم أشبع منك؟

يا هبلا يشرق فيّ كلما اقتربت من الله قليلا، لا قوة تنفي سلطان الحب وطقوس عبادة المشتهى. أخرجني من حيرة الموت البطيء. دلّلني قليلا كما دللتَ نساءك طويلا، وأنت في زوبعة الحياة. أعصف بي لأتحلل فيك. أحتاج فقط أن تشركني في عواصفك كما أسكنتني في سهوك ودوارك. دع الشموس تضيء خباياك الحزينة وأنت تركض نحوي، لا حق لك في الحزن وأنت معي. لن يتغير شيء في قلبي كيفما دارت بك أهواء السماء والأرض. هو لك كما رآك في أول لمحة بصر، وأنا أخرج من بيت الله، مربكة أمام صلاة لم تكن أنت فيها.

يحدث يا سمائي ونجمي، يا حاضري وغيابي، أن نعبر في الحياة الهاربة بالقرب من آلاف الوجوه والعلامات الصارخة، لا شيء يوقف تيه الخطى، ولا ركض النجمة نحو الرماد. فجأة

نصطدم بما لم نكن نعلم. ربما بفكرة هاربة، بحلم بحجم تفاحة الغواية، برجل يشبه نفسه، ظله كان فينا. قضينا العمر في تفاديه دون أن نعلم، قبل أن ننام بين ذراعيه. ننتشي بزمن ظل مخبأ فينا، وندرك فجأة كم كنا أغبياء، وكم من الوقت ضاع هباء، أو سُرق. هل نحن شيء غير هذا؟ نضيع الحياة بالحياة، والفرح بالفرح والنور بالنور.

حبيبي الذي أنتمي إليه، امنحني قلقا، فأنا أقبل به، لكن سلم لي مفاتيح القلب أدخله، تعبتُ وأريد أن أرتاح قليلا. أراك بكل جنوني الدفين، فقط لأبعد عنك شرّ المسافات، وأذى الموت والضغينة. على حافة خليج الغرباء، غيّبني فيك. دللني قليلا كي لا يصيبني مقتل الحنين. وعندما تشعر بثقلي، ضع بيني وبينك حجابا بحيث أراك، وليس مهما أن تراني. وإن خان قلبك ملحه، ارمِ بيننا ضباب السواحل، كي لا تراني ولا أراك. توّهني في بحرك. وقل لهذا الطفل الذي لم يكبر فيك إلا قليلا: هذه المرأة لم تعد لي. سينغص عليك راحتك الجديدة، وسينسيك الصمت، وسيل الأسئلة المستعصية. لك أن تمضي الآن، حيث يشاء قلبك، فهو اختار أن يظل معي، وفيا لملح رضعه مني يوم منحته أول نهد يتفتح على شفتي رجل، يفاجئني في كل مرة، بأنه ظل وفيا له كما في اليوم الأول.

سافر حيث تركض خطاك، فأنا هنا في أنفاسك، كما اشتهيتني

أن أكون، فماذا بعد؟ لا تسألني يا هبلي عن غواية صنعناها معا: هل أحِبُّكَ؟ كيف لهذا السؤال أن يمر بلا عتب؟ أشرّع ذراعيّ باتساع الكون، فقط لأقول لك: نُحَبَّكْ قَدّ الدّنيّا، ونْموتْ عليكْ. ثم أوقد شمعة في عزّ الظلمة، لكي ترى كم في قلبي منك. تهزني من كتفيّ، ثم تمضي بي نحوك، في ضحكتك الساحرة، تبحث عن بقاياي في كل لمسة أو همسة. ثم توقد سيجارة لك، وتنسى أن تشعل ثانية تشركني فيها بشفتيك. الحب الكبير لا يبقي لصاحبه شيئا يتكئ عليه، والحلم العالي يودي بعاشقه نحو سماء يجهل مدارجها.

أقوم الآن بلا رغبة في أحد إلا فيك، وفي مطر بات يسقط في داخلي. أبحث عن أوهامي الشهية وأُجَنُّ بك وفق مزاجي. لي في هذا الصباح المعطر بالأنواء، موعد مع شوق لا يشفيه إلا مطر الحنين. من وراء زجاج نافذة البيت القصي، أراك تعريني على مهل، وتغسلني من ثقل الأسفار. أركض كما طفل الصحاري، على حافة بحر يتخيله، يغمض عينيه أمام موج يكبر فيه، ويتخفى بين النخيل من غيم جاف، مثقل بالرياح وبعض الماء الأصفر.

ممعن في الحب هذا المطر إذ يأتيني على حين غفلة، وفي عز أعراس النخيل، وجنازات الورد، وحزن الحجر. أشتهيه بيتم الغريب، يبحث عن رفيق لا يأتي بعد طول انتظار. أريده

مطرا لي وحدي بأنانية العاشقة. مطر لا يسقط إلا علي. أتشفّى في عيون الأخريات العاشقات، كيف لهذا المطر لا يغسلهن؟ أسمع قداسته المثلى كما لو أنها موجات بحر يتمزق في عز رياح الشتاء. مطر عاشق، لونه بياض، ومساء يتحول إلى قطرات بألف لون.

ممعن مطر القلب في الغيّ، فأينك حبيبي؟ لا يمكن لقلبك الأزرق أن يخطئ هذا اليوم. لا تتركني وحيدة تحت في مساحة فُصِّلتْ لعاشقين مثلنا.

وحيدة في غيابك، أعدد أوجه العابرين، وحبات المطر، وأصغي فقط لصوت قطارات ركبناها زمنا، يأتي من بعيد. أغمض عيني فقط لأراك. تقتلني المسافات وظلال ذاكرة تنضح في كل ثانية بغيابك. لا يمكن لمطر يغطينا، ألا يكون شهيا.

بعضك ساحر، وبعضك قاتل. فكيف لي أن أخرج منك بلا خدش أو جرح عميق؟

مازلت على الحافة. حيث تركتَني آخر مرة، أهرب ببصري بعيدا لكيلا أرى بشرا ومدى إلاّكَ. لا ظلمة الهوة أو حرقة المآل، أنت فقط. كلما أصابك حزن أو خوف، احمل قدرك وتعال. ألم تقل يوما إني أمانك، وشجرتك التي تظللك من خوف، وتقيك من شر زمن آت في مراكب القسوة والموت؟

هل هو الموت حبيبي؟ لا تخف عليّ، فقد أصبح الموت حليفي. أنت الآن مسجى في قلبي، في بياض الحرير، محاط بكل شموع الرحيل. لا سلطان في الدنيا يمنعني الآن، وأنا أرتعش كطير سرق ندى الليل جناحيه، أتلمس وجهك وعطرك وشجنك الأخير، وأهمس في قلبك النائم في صمت السكون الأبدي: كم أحبك، وكم قضّيت العمر أنتظر خوفا من أن تسرقك هذه الشموع ويلفّك هذا الحرير... ويهرب بك نحو التربة، هذا الموت.

15 - لا أحدَ إلاَّك يا هَبَلي

ساعدني حبيبي كي أفهمك. أصابني الدوار في مكانك، أما شبعت من هذا الخوف؟

مدن الشمال باردة، وبي شيء من الرعشة تسكنني وترميني خارج المدار. كم أشتهي اليوم أن أنسى كل مدنك التي سرقتك مني. كم أشتهي أن أهشمها واحدة واحدة، فكل المرايا كاذبة، وأرمي بكل قطعة منها نحو مجرات التيه، كي لا تعود ثانية أو ثالثة، وتجرح فرحي وذاكرتي. ستقول عني حبيبتي جُنت أو كاد الخوف يقتلها. حبيبتك لم تجن برجل سواك، لكنه الألم عندما يبلغ مداه.

أعرف أن الذي في قلبي لا يلائمك، وأعرف أيضا أن حرائقك التي خفتت قليلا، لن تنام أبدا. ستذكرك كلما عبرت بوابة القلب بحثا عن بقاياك .ستعيدها كل العواصف القادمة، وستعلو بها طويلا قبل أن تدفنها في قلبك .عقلك يرفضها وكلك يغرق في كلك، وفي مبهمها.

ربما تكون قد تقدمتَ عن موعدك بقليل أو تأخرت عنه بثانية، في كل الأحوال ليس موعدك. التخلي يجرح دمك، لكنها لم تمسح، ظلها، ولم تسكن ظلا آخر، هي صححت

مدارا مائلا بمدار أسلم، فلِمَ اللوم؟ في قلبك متسع لنسيان امرأة تأتيك وتصرخ أمامك بجرأة الرعد، يكفي، نفترق الآن، لم يعد في هذه الدنيا ما يحمينا من بعض. لكن التباس السرّ يقتلك. كل الحرائق تخبو إذ يمضي وقتها، إلا حريق أن تباع بلا تقسيط لأول عابر على الحواف.

نم حبيبي، أنت منهك وعواصم الشمال باردة، وأنت هش مثل نسمة تخاف أن تجرح جناح وردة. لا تترك سحابة الحزن تسرقك، النور الذي يسكن في عينيك يمنحني يقين الحياة.

أنشدني حبيبي كما لم تنشد حمامة أو غيمة. امنحني ظلك واتركني فيه، وراءك حيث تمضي، وأنسحب كلما كانت الشموس أقوى مني. دعني أتماهى فيك علّ يصبح لموتي معنى. ليس لنا حياة ثانية غير هذه التي أُعْطِيت لنا بسخاء.

مدن الشمال تقتل في السرّ والعلن، وترفع شكواها لعشاق الريح والزلازل.

مدن الشمال هزات متلاحقة هل من جسد يتحملها، وقلب يراقصها؟

مدن الشمال امرأة ثكلى، تبكي أيضا عندما تخونها عزلة السماء وسكينة الأشجار الحزينة.

فلا شيء يا هبلي يهم الآن، في هذا البرد القاتل، وهذا المطر الثقيل الذي تخفّى طوال شهر ديسمبر ليظهر الآن. فقد سلمت بفقدانك وأقنعت القلب بأن لا يلتفت صوب دم الذبيحة. لا شيء سوى هذه العزلة المرة وهذا المبهم الذي يتحول فجأة إلى سؤال مستعص حول كل ما يحيط بنا. ينبت فينا كأنه بيت مغلق بجدار من نار. يتماهى فيه كل شيء، بعض النور الهارب، والظلمة والخوف والفقدان. كل شيء انطفأ في الأفق ولم تبق إلا الظلال التي يخلفها الأموات قبل أن يرحلوا. النشيج سري، ونداءات مكسورة وجسد لم يعد موجودا، غيبته الأنواء ومسافات لا تنتهي. آلامك تتعقبني يا مسيحي الصغير، ماذا أفعل إذ جردتني الأيام من كل فرح أو انتشاء.

نلتقي غريبين، بلا كلام سوى سلام خجول، ونفترق على وعد نعرف جيدا أنه لن يتم.

أجرب للمرة الأخيرة، ماذا نخسر، هزيمة الفرح ليست هزيمة. آتيك من بُعد سحيق، أخترق السماوات والفضاءت مثل الطير المهاجر، السنوات والعصور المتعاقبة، غير معترفة بالمخاطر والمسالك، والأزمنة التي تكبل العابرين بسطوة الشك وعسر الوصول. آتيك ولي فرح صغير لا أريده أن يموت.

لا شيء تحت هذا المطر البارد إلا حمام تائه يبحث عن مرافئ دفئه، وينظر إلى عيون المارة برجاء دفين، علها تمنحه السكينة ولا تطرده من أمكنة اختارها لينافس فيها أقدام العابرين، باحثا في عيونهم عن بعض أمانه. الحمام أيضا عندما يتعب من ألم الانتظار، يقف على حافة الموت ويصغي لنشيج قلب لا يخون دمه قبل أن ينشد هديل قلقه في خفاء يحول وجوه العابرين، إلى حبات مطر تنزلق في كل اتجاه.

شدني إليك حبيبي فأنا هشة مثل لغتك المستباحة، ليتها كانت لي وحدي.

شدّني أكثر وانشد رعشتي، وكن بلا رحمة العاشق، واكسر قوسي بين يديك. امنحني بكاءك الخفي الذي لا ترضى أن يراك فيه أحد. أدخلني في خفاياك التي تحرقني الآن، أوقف غيّي للموت، لا أريدك أن تغادرني مكسورا كما الشجرة اليتيمة.

لستَ وحدك يا نوحي الذي لا يموت، من يغرق في النار ليدرك سر الشعلة في كفه. لست وحدها من ينام في عين العاصفة ليرى، فأنا أيضا أريد أن أكونك لأدركك، وأسكن فيه. أن أحرقك لأعشقك، وأبعثر رمادك لكي لا يلمسك أحد غيري. أن أرمّلك لأكونك. فلا عين في هذا الخوف تراني، ولا نظرة تعرفني، ولا يد تسعفني، ولا قلب يلمس

سري، ولا وجه يلبسني. لا أحد إلاّكَ فيَّ يا هبلا لم أعد قادرة على تحمل تيهه الأبدي. أنت في الروح من يجمّل بعضي، ويدهش حدّ الهزة كلي.

ابق لي ولنا، فكل الأسفار موت يتغنى بلعنة الصدفة.

إذا هجرتَ فمن لي..

ومن يجمّل كلّي..

ومن لروحي وراحي..

يا أكثري وأقلّي

أَحَبَّكَ البعض منّي..

فقد ذهبت بكلّي

يا كلّ كلّي فكنْ لي..

إنْ لم تكن لي فمن لي

يا كل كلّي وأهلي..

عند انقطاعي وذلّي

ما لي سوى الروح خذها،

والروح جهد المقلّ[1].

---

1. الحلّاج.

16 - ربما... لكنك لا تصلح لهذه الأرض

كم ضيعنا من سبل بعد أن أخطأنا كل المسالك والطرقات.

في هدأة الروح كل شيء يخبو. تنام العواصف وينام الخوف بعض الوقت. نحتاج أن نصمت قليلا ونجعل من الصمت خيارا لنا. كلما تكلمنا نهضت المدافن القديمة، وازددنا بعدا عن بعض.

هل تدرك حبيبي أنك تخطئ دائما حيث يكون عليك ألا تصيب قلبك؟ وتنسى أن ما لك اليوم قد يكون لغيرك غدا؟ الدنيا كما البشر في دوار الموت والفرح الكبير ينسون كل شيء ويركضون بعمى الجوارح نحو سلطان الضوء. لماذا كلما استحال السؤال، التويتَ على نفسك، وأصبحتَ جنينا بلا كلام؟ لماذا تنسى دوما أنك من غبار الزهر، ومن تربة الريح أتيت، تعبر زمنا مسلحا بالغيم وشمس حزينة؟ لا أعرف كيف أصفك ولا كيف ألمس قلبك ونداك. أنت لستَ من هنا، يا رجل الصدفة الجميلة. ربما كنتَ من كوكب آخر وانزلقت نحو أرض ليست لك، لكنك لا تصلح أبدا لهذه الأرض.

يضحكني هذا الخواء المريب.

تضحكني الأشجار اذ تموت واقفة حبا في الريح

تضحكني العصافير إذ تعلو فتموت عشقا في سماء تبعد في كل ثانية أكثر.

يضحكني الرمل اذ يلملم نفسه، وينام في حضن الصخرة قبل ان تعريه وتهرب صوب الوادي، فيصبح طعما لنعال العابرين.

لستَ في حاجة إلى كل هذا يا هبلي. يكفيني أنك هنا في خفقة القلب التي ضعفت كثيرا منذ أن التقينا آخر مرة. لستَ في حاجة لأي اعتذار. الاعتذار يقتل صحوة القلب ويخون في غفلته فسحة الشوق. قل لي فقط أحبك لأواجه هزة الموت الأخير، ولعنة الغياب.

قل لي أحبك، ولا تسأل عن الباقي، سيعرف قلبي كيف يساوم موته قبل الرحيل. أحبك. تكفيني لسجن العالم كله في عمق كفي، والهرب بالشمس نحو كوخي والنوم بلا سؤال ولا عودة محتملة، في التربة التي صنعتني.

قل لي أحبك فقط لأستريح من صحوة البركان، واتركني أستحم فيه، فالنار أرحم من غيمة أقسى من الحجر.

قل فقط احبك لأوهم نفسي بأنك مازلتَ هنا، ودعني أخرج بخسارات أقل. وانصرف بعدها لشأنك، لن يحاسبك أحد عن قلب اختار أن يصمت للمرة الأخيرة. كان هنا ثم انطفأ

في سكينة. للقلوب لغتها، ونواياها المعلنة والسرية، فلا ترغمه على شيء لا يريده.

حبيبي يا خوفي المجنون؟ ما الذي ينتابك كلما تعريتُ أمامك واحرقتني ثم مددت ناري نحوك؟ كل الظلال تخيفك يا هبلي، وكل المدن بلا أسماء ولا سماء. ألم أعد لك. هل تحول جسدي إلى عقب سيجارة مآلها الرماد؟ كفي اليسرى لم تغلق أبدا حتى عندما اشتهاني الموت، وأصابعي لم تفقد رجفة الطفولة. أنتظرك. أمنح الحياة حظا آخر يشبه حلم العشاق المهزومين. في انتظارك بلا ملل، عندما أتوسد رجفة الطفولة، رماد الشمس الليلي، وماء العطشى.

أنا كما احتويتني، واليوم تراني، لست سيدة النبوة تهدي العشاق بوصلة الوقت وفسحة الهرب في غابة الكلمات. لست حاملة للقرابين في عالم لا شيء يحكمه لا الأديان في صفاء اللحظة ولا الخرافة. أبغض نفسي إذ أكون نقطة تقتل سحر الجملة. أقتل جملة لا تحملنا نطفة في رحم الوقت. أشتهي أن يستمر كل شيء بلا هدنة ولا هداية.

لست ككل النساء والرجال أيضا، لأمسح لغتي وأتمادى في غي الوهم الكبير. لست شيئا كبيرا، مثلي مثل اللغة التي لا يتقنها إلا من عرف القلب وسره. مجرد امرأة عابرة في سبيل

لا تعرف مسالكه. لا تطلب الكثير من النجمة البعيدة سوى أن تظل مضيئة، ولا من السيدة التي تعبر الرصيف بسرعة، سوى أن يظل عطرها أطول مدة في حواس متعبة، تعودت على البارود رائحة الخوف. لا أملك قدرة الآلهة لأسكن الرعد والبرق في كفي، ثم أطرز بهما قبور الموتى حتى أوقظهم من غفوة الأبدية. لا أملك سوى خطواتي التي تسلك الحواف وتحلم بأن ترجع الحياة لكل النجوم التي تهاوت من الأعالي بلا رأفة.

هنا، لا أملك من حق سوى المزيد من جنون الغواية. كلما انزلقت قدماي في المهاوي الباردة، تقدمت خطوتين نحو الفراغ. أي المسالك أعبر، تلك التي أعرف مؤداها، أم تلك التي أشعر أن نورها الوهمي يقودني نحوك.

أسير بلا خطو، وكم أتمنى ألاّ يوقظني أحد إلاّك.

17 - لا يهمّ إذا هزّ المطر كتفيه، ثم مضى

في كل خريف يفاجئني ظلك. يمنحني كل ذهب الدنيا ويجعلني أجمل امرأة وأبهى أنثى، وأخلص عاشقة. أسافر فيك على متن قبلة أو حفنة من أوراق الشوق، رسائل هربتها من النار. قبل زمن قصير كان حبيبي بلون الندى، التقينا ولا أعلم كيف افترقنا. ربما لأني لم أعرف كيف أحفظك عميقا فيّ. وربما كنتَ أجنّ من أن تستوعبك امرأة. من شدة لهفتي عليك بنيت لك مشانق، ومكاتب للتحقيق، ثم أجهزت عليك بحبي. من الحب ما أخفى جنونا، ومن الجنون ما قتل.

قبل زمن مشيت بسرعة نحو التيه ولم تلتفت. جئتني من ظهري وسرقتَ غفوتي، وأغمضت عيني بأنامل مرتعشة، وقلت لي: من أنا؟ تلمست جسدك، وأصابعك وخاتميك، وأعلنت بلا خوف. من أنت؟ تسألني يا أحمق عني؟ حبيبي أنت. كلي. كيف يمر بذهنك وعرقك يفضحك فيّ؟

من بين كل مخابئ الروح الثكلى، قلبي الذي لم يعرف إلى أي ريح يستكين؟ هل تخاف عليّ من موت الغياب أم من التلاشي في تيهك الذي يقتلني؟ أنت لي؟ لها؟ لنا؟ لنساء الخوف، لطعم الورد والندى؟ للمطر وبقايا ثلج مات بسرعة

وسحب الجفاف؟ لحليب النهد الذي سرقته أنوثته، واحتمال أمومته قبل أن يفتح شهوته؟ هل لي أن ألوم نجمة تسرقها السواحل والسماوات البعيدة، وأجنحة الطير وأسفار المنتهى؟ أيها المشتهى الذي لي، ويظلّ حبيبي، حتى عندما يسكن فراش المقاهي والفنادق الساحرة، وأوبرا عايدة أو كارمن، أو شهرزاد، اللواتي عرفتني فيهن.

حبيبي يا وهني ورعشتي من ريح تسرقك مني.

متى كان العاشق عاقلا لأحاكمه؟ ومتى كانت المعشوقة امرأة عادية لكي تتحمله؟ هو الخريف يا قلبي لا تسألني عن شيء. ضمني إليك وامض بي نحو كل ما يسعدني. فصلك الذي كان يُسكِنك الحياة ويرميك في عرض الورق الأخضر، وزهر الرمان، لم يعد يلتفت نحوك. مثل الأشجار تتعرى بسهولة في شهورك الأولى. ترمي الأصفاد، وتُسكتُ جشع الموت وظلم القيامة. مثل النساء العاشقات تحبل بسرعة أنت أيضا. مثل الشوق الكبير، تتسع بلا نهاية، وتكبر في عمق الغياب. لم أثقل عليك يا وهجي، سأسأل فقط أمطار الخريف حينما تمر من هنا، بالقرب مني، هل صادفتٍ عاشقا يمتطي الرياح، ويسكن حبات المطر، وينتشي بامرأة لم يصنعها الا من ورق الخريف، وعشق القبلة، ورقص الغيمة، وسحر اللمسة،

ودهشة الرعشة. سأسألها ولا يهم إذا هزت الأمطار كتفيها، ومضت، ولم تسأل عني.

من استباحني غيرك، وغير المطر الذي كلما نزل، سرقني مني.

جئت بي، ثم رميتني في عز المطر وسيول العاصفة. نبهتني كمن يخاف على حبيبته من يد تسرقها. قلتَ لي احذري، لا تتخفي تحت المطريات، فهي تسرق أجمل ما فيك: جنونك. كل شيء أقبل أن يمضي، قدر الحياة الضعيفة. لكن جنوني طريقي الوحيد محك كلما أصابتني حمى الشوق والحنين. كلما مددت نحو السماء تذكرت أن رجلا لم يبخل بسماء بعيدة، فأهداني كل شيء أزرق. ألبستي الداخلية، خواتمي وصحون السهرة والقناديل الذي تضيء مدخل البيت. وهذا المطر البارد يلسعني، لكنه يشبه أصابعك ويديك. انتظرني يا خبلي، أنتعل كلي وآتيك. بلا سؤال ولا حيرة أركض نحوك، عارية القلب، حافية القدمين. لا تذهب الآن، ما يزال بيننا دين كبير في الحب. انتظرني كي أطرد خوفي وأصدق نفسي أني بين يديك. الغبي من يستنهض السؤال تحت المطر. والأغبى من ينام فيه. سأصمت كما الغفوة. امنحني فقط ذراعك الأيسر لأكون قريبة من قلبك، إذ يلهو بشماتة الأقدار، ولأقطع معك دروب الماء، والبرك، وأضواء شوارع القلب، ومسالك المطر الهش.

هذا المطر لي، وانت لي، وكل ما أنت فيه لي أيضا. وهذه الفرحة الصغيرة التي في عينيك لي، فلا تمنحها لغيري. لا توقظني. دعني أغرق فيك لثانية وبعدها لتأخذني ريحك حيث تشاء. تعلم جيدا أن امرأة مثلي لا تملك إلا جنونها، منحت قلبها للتيه، لن يضيرها أن ترمي المطرية، أو تكسرها على حائط قديم، أو تطوح بها في عمق الريح، أو تخلع لباسها وكعبها العاشق، لتستحم بك بلا رحمة.

يا صرختي النائمة منذ قرون، أينك الآن وأيني؟

زمن مضى وآخر يأتي، سيمضي بسرعة. كم كان الوقت ضيقا حبيبي، وكم كنّا أغبيا، ضيعنا ما لا يجب أن يضيع. كيف استقام لنا الرضى ونحن نحرق الأيام بنفس اللغة، ونفس الأحكام. كيف قبلنا أن نتحدث ليالي الشتاء الحزينة كلها، ونسينا أن زمنا قاتلا كان يتربص بنا؟ يهزمني كلما استعدته مكبلا بالأسئلة القديمة. لي فيك حق العاشقة، ولك فيّ حق امرأة السراب. فماذا أعني لك في النهاية وأنا أموت بين يديك؟ هل أنا الحبيبة، سيدة الظل، المرأة الخبيئة؟ كيف ننشئ حياة وفرحا وأحلاما كثيرة في السرّ؟

اتركني الآن أعلو بجناحي طائر الحوم، ولا تعدني نحو تربة سرقت طفولتي. علمني فقط كيف أنسى قيدا شق اللحم

والعظم، وانتقل إلى الروح، ويتَّم قلبي. نسيتْ سمائي الصغيرة أنها تعرفني، وأني أعني لها شيئا أو بعض شيء. لقد عبرنا كل الأحزان والمخاوف معا، وعشقنا كل ما وضعته الرياح بين أيدينا. تألمنا معا، وضحكنا من حبر الرسائل الذي لوّن أصابعنا بالبنفسجي السخي، والأزرق العاشق، والأحمر الهارب، فكيف تهرب الآن من شمس صنعت لنا خيوطا من نور وزكت هبلا نشب فينا كما النار؟ ما الذي حدث يا جنونا يهزني كلما غفوت، ولماذا استيقظت فينا هزائمنا الخفية؟

ماذا حلّ بنا؟ ماذا حلّ بساعات الوقت والسراب الذي لفنا في عمقه طويلا ثم أسرع الخطو بعيدا. مشى بنا نحو دوار لا نعرف مسالكه، ثم انسحب بصمت، لنجد نفسينا حيث كنا، في فراغ الحنين، نتدحرج داخل عبث السؤال، وخيبة المحاولة؟

أمشي الأن باستقامة مثل قصب الوديان، مفرغة من الداخل، من نجومي، فرحي، أناشيدي القديمة، تراتيلي، لا شيء في كفي إلا حفنة غبار تشبهك في كل شيء، كثيرا ما صفّرتها الوحدة، والرياح الرملية، والمطر الموسمي.

أمشي، محملة بك، أخترق الحجب البيضاء التي تمنعني من المرور نحوك، والوصول إلى الحافة التي تقف عليها الآن وأنت

لا تدري، خطوة واحدة تسرقك مني إلى الأبد. وخطوة أخرى منك، تكفي لأستعيدك. خطوة يتيمة تكفيك لتحولني إلى ريشة في مهب الغيم، سيدة التربة والنجوم وملكة على عرش العاشقين. أخشى أن تنسى أنك لي، وتبحث عني في مخبأ الموت وصمت المقابر. ابق هناك، وسأبقيني لك. أكره قدرا يضعك في مرمى التهمة ويجبرني على كرهك. لا أريد أن أخسرك.

ربما حدثتكَ هشاشة قلبك المفتون، يوما، عن امرأة لم تزن المخاطر، ولا حقد قبيلتها، ولا دم المقتولات صونا للعار، أنها أصبحتك يوم أحبتك، وأنها لم تسرقك منك إلاّ لتكونك. وأنّ النار التي فيها تكفي لإشعال سكينة الأرض كلها.

لا تلمني إن لم أكن إلا لك، خياري لم يكن صدفة، وفشلتُ في أن أكون لغيرك.

انس كل شيء، ذعر المنافي، هدير الزلازل، تمزق الموج على حافة أقدامنا، خذني أكثر إليك، واسمع معي نشيد أمطار الخريف، ربما استعدتَ بعض عافيتك.

18 - زمن مرّ ولم نلتقِ

زمن مرّ ولم نلتقِ.

من بعيد أسمع نداءات الخوف لكنني ضيعت المسافات والبوصلة. ماذا تفعل الآن في خلوة ذئب البراري الذي منحك الهوية والحب وعنف الخسارة؟ اي حنين ينتابك فيزرعك فيّ كما الدالية، في عز النار؟ هل تدري حبيبي، لم أعد أطلب الشيء الكثير، سوى قلب يعرف أني هنا، وأن الحياة التي في الكفّ ليست أكثر من لمسة عابرة. احترقت كل الأوراق التي غطتني زمنا طويلا قبل أن تهرب مني. كل الحروف التي جمعتنا في خلوة الشوق، امحت، وحالت الرسائل حتى أصبحت كفنا بلا إشارة.

تذكرت الآن أن لي في القلب سلما قديما، نفضت غباره في هذا الصباح، أتسلقه فقط لأراك من وراء حزن المسافات. صعدت أدراجه الهشة كما العادة، ثم رفعت رأسي عاليا علّ شيئا يمطر في داخلي، يعيدني إليك. لم أر ما اشتهيتُ سوى ظلي. كانت السماء باردة، بلا نجمة العاشق ولا غيمة الغريب. ماذا أقطف لك في هذا الصباح غير هذا الخوف الذي هربنا منه زمنا طويلا قبل أن ينبت فينا؟ أية خسارة لحقت بهذا الشوق الذي انكسر عند عتبة الريح، وهو يركض

نحو نجمة الصباح قبل أن يسرقها العابرون. أية خسارة تلك التي محت جنونا سجنته اللغة؟

ها أنا ذي أمضي، دليلي الأوحد في الظلمات أنت، وربما أنت، كما التقينا في المرة الأولى على حافة الصدفة، كنا نمشي في اتجاهين لا يلتقيان. أية معبر مهجور وضعنا في نفس المسالك؟ رأيتك ولم يكن ممكنا أن أتركك تمضي نحو حياة لم تكن أنت صانعها. تجلت في عينك رغبة العالم السري. ابتسمت بحيث لا يمكن تفاديك. والتقينا ذات ثانية لا تحسب في ميزان الحياة العبثي، أو ذات يوم، أو ربما ذات عيد ميلاد، وأدق من هذا ذات بحر كاد أن يسرقني. لم تشتر لي زهورا يومها، ولم تتكلم كثيرا، لكنك وضعتَ في كفي كتابا لا أتذكر من ذلك سوى لون ملتبس بين الزهري والرمادي المكسور، وبيت مرت عليه أقوام، وظل مقاوما للريح وعواصف النسيان. هل تريد تفصيلا آخر؟ كانت أبوابه مصنعة من خشب قديم، كأنها لم تفتح منذ ماتت أندلسنا من وراء السواحل المنسية.

كم تمض تمضي الأشياء بسرعة حبيبي، كم تتغير الأوقات. كيف لي يا هبلي ألاّ أعبد تلك اللحظة التي رمتني بين ذراعيك. أحبك وغير معنية بما سيأتي، فتلك قصة أخرى لا تعنيني إلا قليلا.

لك أن تصمت الآن حبيبي، ولك أن تمضي إذا تعبت مني، اكتبني إذا اشتهيت، لكن لا تيتمني، أنا مازلت أصرخ على عتبات منافيك ملء يأسي: هنا في عرض قلبك ومساحات روحك باقية. عندما تكبر عواصفنا أتخفى فيك، وعندما تخف، فأنت فرحي. لم يمت بعد الذين نحبهم، فلماذا هذا اليأس، أهو غيّ اللغة فقط، وهذا أفهمه كما أفهم سر خطاك، أم شيء أكبر لا سلطان لك عليه.

ألم أقل لك حبيبي إن غيابك يقهرني ويرميني في مهب حنينك وأسفارك. كم اشتهيت أن أسرق دفء الدنيا وأسكنه في عينيك. كم حلمت أن أجر الشمس بكل عزها وأسكنها في عمق كفيك. ثلوج الشمال هذه السنة لم تكن رحيمة معك، ولا حتى معي، لكنها جمعتني بك. كلما سمعت ريح الخوف، أحسست كم أنك إنك هنا، أقرب إليّ من نفسي، وقصصي.

اكتبني ولا تسألني إن كنتُ أحبك، فلم يعرف صدري غير خطوط أصابعك، ووردتا اليتم غير ملمس الحرير وحضن كفيك. بي شوق يمنحني بسخاء العاشق كل دمه وأشجار حنينه، ولا يطالبني بشيء سوى أن أظل على حوافك، وفي بعض لغتك وفيض دمك. بي شوق أن أسكن غيابك لا لأعرف سر أمطارك، ومعابر ماضيك وعواصفك وأسرار

نجومك، فقط لأتمكن من تغيير مسارات الأقدار، وأضعني كما المرة الأولى في صلب الغيمة التي أمطرت شيئا يشبه الحنين.

يقولون إن الأقدار تنصاع للعاشقين، وها أنا ذي أتنفسك كما زهرة الياسمين. أجيئك خارج ظلال الحزن فقط لأراني فيك، وأستبيح جنونك بي، وهبلك وأنتمي أبدا إليك. وكلما رأيتُ الموت يعبر من هنا، تحت نافذتي أو من ضلوعي، استنجدت بظلك الذي فيّ فقط لأستمرّ في الحياة، وأشهد أن عرش حبك الذي أسكنني في خيمته الخفية وراء تلال الأسفار، لم يمنح القبيلة فرصة قتلي.

اكتبني حبيبي إذا استطعت، دفعة واحدة، لكن لا تعذبني بين شكين: أحبك، لا أحبك. لا تسأل إن كان ذلك يروق لي، فهل هناك امرأة عاشقة في برية هذا الكون الجاف، ترفض لغة ترفعها نحو السماء لتسمو بعيدا حتى تلمس بأصابعها الناعمة قلبا مرتعشا، شاءت صدفة الأقدار أن يكون لها. هل هناك أنثى انتظرت دهرا حتى مات كل شيء فيها ولم يجفّ قلبها، غابت في مسالك الهبل ذات ليلة، تريد أن تسترجع عقلا كان تيها، وموتا شبيها بدم الأنبياء؟

لا تسأل كثيرا هل أنا أيضا أحبك، فلو وضعوا الدنيا في كف، وأنت في الأخرى، لمال القلب نحوك، ومضى يسخر من كل ميزان.

اكتبني حبيبي، وامش نحوي، فلا أحد غيرك يعرفني. جسدك شهادتي أني مررت من هنا. انزع خوفك من عينيك، فلن يسقط اسمك من قلبي. حتى يوم أخونك، فلن يكون ذلك أبدا إلا معك.

اكتبني حبيبي، ودع مزاجك العاصف يغريني بمزيد من التمادي في المعاصي.

19 - تعلَّمْ فقط كيف تعذر حزني

لا تسألني يا هبلي واعذر حزني.

لا شيء يتكرر، لا ماء السواقي ودموع الثكلى، ولا حزن العذارى. لكل قصته وقداسة سره.

الحرب التي سرقت طفولتي، انتهت. مرت من هنا بلا سلام ولا ندم. ووضع المتقاتلون أسلحتهم في المتاحف. الوجوه التي لا أحب سحبت ظلي واختفت. كل فرح وأنتَ أنا في دمي وفي ملامحي التي تفضحني. هل تدري أن كل الأعياد ماتت ولم تمهلني ثانية للفرح؟ قلبي مفعم بالورد والحرائق وصخب الخيبة. وماتت شهوة الفرح. مات الذين كنا نؤمهم في الأعياد، وماتت العصافير وأشجار اللوز واليوم لحقت بهم الزيتونة اليتيمة. مات شعاع السكينة، وانسحب حلم البحر وظلال الموج، وانحنى ظهر جبل العاشقين.

هو العيد، لكنها الحرب يا قلبي توقظ موتها النائم منذ زمن قصير، وتحرق ذاكرة يتامى الحب والحنين. أشتهي أن أنسى رماد الحي والأسقف المحروقة. أشتهي أن تموت ذاكرتي ولا أرى شيئا ولا أشم رمادا عمق الروح منذ أن ارتعش نظري للمرة الأولى. أمنيتي أن أمحو من تاريخي، مزق أشلائي التي

احترقت ليس بعيدا عند عتبة البيت القديم. أشتهي أن أنام في حضن أمي التي سرقوا منها النشيد الأول وسحر الملامح.

للحزن وقت وللفرح وقت آخر، لكنها الحرب يا قلبي، لا سلطان لأعيادي عليها. كلما سمعت طنين مدافعها، انسحب الطفل نحوي كأني أمه، ثم نام على خوف. لي الحق يا قلبي، كل الحق، في أن أخرج من صلب النار، وأهمس بلا ألم: أنت ميراث فرحي الأوحد. أعدني إلى حضنك لكن لا أنسى أني مازلتُ حية. أسكني بؤبؤ العين لكيلا تسرقني منك ظلمة المتاهات الثقيلة.

دعنى حبيبي أنسى قليلا رمادي وأشبك لغتي بكل حواسك. امنحني يدك ولا تدع أصابعي تموت. قل للشمس بأن لا تنسحب مبكرا، وتمنحني مساحة صغيرة لأدفن أمواتي، وبعض لغتي، ولون الظلمة، وأعود لك. قل لها بأن الحزن ليس حرفة، لكنه ظلّ ما نخفي. امنحني بعض صبرك وعقلك، فأنا لم أعد قادرة على التفريق بين فجر يأتي محملا بنا، وفجر يمضي مشحونا بالأخبار الحزينة. أدرك أني يوم أسلم وجهك للنار، سأستسلم للنار قبلك. أموت في غيابي كلما تذكرتك وأنت في دوار الحياة والموت.

اعذرني ولا تحاسبني كثيرا. لا أملك اليوم ما أواجه به قدر العزلة، سوى جسد سرقته القبيلة مني. سوى وجه رأى كثيرا ولم يعرف صراخا ينادي به من يغيثه، أو يمنحه فرصة واحدة للنجاة. بكيت العزلة ولعنة كوني امرأة، حينماأدركت أن أوراق الرصيف الميتة أكثر قيمة مني، وأن أجنحتي المكسورة لا تعني أحدا غيري.

أي فرح يا هبلي، يمنعني اليوم من السقوط في الحافة؟ همت على وجهي، وانتظرت يدا توقفني فقط لتقبل جرحي، تصافح تيهي وتمضي. غفوت بين كوابيس النهار، وجزع الليل وأنا أتمنى ان يلتبس الليل بالنهار فقط لأجد مكانا يليق بسري، حيث أرى ما لا يُرى، وأعرف كيف يفكر الذين يريدون أن يعروني من ظلي. ألم تقل لي يوم عثرت عليك في منعطف الخوف وكدت أفقدك في الثانية الاولى: لا تتعبي نفسك إلا بالقدر الذي يسكنك دوار العاشق. لا شيء يستحق الموت سوى الموت نفسه. حبيبك أنا من ملمس ونعومة، جسد يرتعش كلما مسته أبجديات المطر، ولست ريحا هاربة ولا عاصفة في كف الغياب. حنينك أنا، أسكن جنون النار إذ تأكل النار نفسها. لست بدلة تتقادم بفعل الزمن، وتتهالك في قبر الخزانة للمرة الأخيرة. لكل رجل كبوة، وكبوتي قلبي. ينتابني خوفك بلا سؤال. تريدين الذهاب لأنك تعبتِ من

وجوه تسرقني من قلبك؟ انسيني فيك إذا شئتِ. ادخلي لغتي واسكنيها فهي بلا سياج. يكفيني أن شمسك قبل ان أن توقظك، تشرق في قلبي بنعومة.

ماذا بعد هذا؟ أهو الحب الذي أسكنته فيّ في أول ثانية؟ أول يوم؟ أو على مدار السنة. أعرف أنك أكثر من رجل أو صدفة، أنت الحياة كلها إذ تنام فيك. رجل من نعومة وحرير. أكبر من هذا كله، ظل سكن الظل، جسد احتل الجسد. لا شيء يحرقني يا خوفي، سوى أنك لا تدري أني أريدك لي. أن تبقى في هذا القلب الذي انتابك أنت أيضا على حين غفلة. ألاّ تترك يدي بلا أصابعك ترتجف. أن تمنح جسدي كل اللغات الخفية واستحالة التوبة. كلما تبت في حبك تأكد لي بأن جنوننا قد مات. كل شيء لك. فرحي ويأسي. خوفي وهبلي. سؤالي ويتمي. أعيادي المؤجلة ولغتي الخائفة، وهذا الجسد المغيب في لباس الرعشة والذنب وخوف العاشقة. أموت اختناقا خارج مدارك، فلا تترك نسمة مرت عليك ثم كادت أن تمضي بعيدا. احبك ولا سلطان يوقفني عنك. جئت نحوك هذه المرة لأنتقم من الرمل، والخرافة، وكوابيس الرحيل.

أشتهي فقط أن أغفو في ملجأ قلبك، وأحاول أن أتدرب من جديد كيف أحبك.

لا تسألني يا هبلي، وتعلم فقط كيف تعذر حزني.

20 - موت يكبر بتوقيت النسيان

حبيبي، هبل ما مضى والآتي من الأيام.

أدرك اليوم وأنت منطفئ في صلوات الغيب، ومتخف في عزلة المعتكف، أنك كنتَ على حق، وأنك اتّبعتَ خطى القلب، فقادك نحو الجرح. كنتُ كلما كلمتك على حرائق الخوف والشجر والوجوه، قلتَ لي: يبدو أن الله تخلى عنا. أو ربما نسينا في مآسي الحرب. سألتك مثل طفلة تبحث عن إجابة على مقاسها: الله ليس مزاجا. سلطان من النور والخير. قوة ترمي كل شيء للريح مقابل حلم طفل يتحقق. تمتمتَ مثل هارب من غموض يسكنه وشهوة نائمة: الله ليس مزاجا، لكنه عاصفة. لا أفهمك جيدا، لكني أدع أسئلتي تركض نحوك: ماذا فعلنا حبيبتي لتأكلنا هذه النار، ويسكننا إلى الأبد يقين الشكوك؟ نحن أيضا نحب الناس والاديان الأخرى، ونحب أن نعرف سرّ الغير، وأشواق من لا يُشبهنا. تهرب بنظراتك بعيدا، وتشيح بوجهك عن الشمس التي لم تشرق إلا قليلا، ثم غابت قبل أن ينتبه لها عابرو السبيل والمارة: يا قلبي المتعب من شطط ما رأى وسيرى. أنتِ أيضا لم تأمني من النسيان. كنا في زمن قريب، كلما اخطأتنا قسوة الأقدار، تحصنا للقادمة. لا توجد لحظة فينا خارج قلق الموت

والصدفة. كنا نبكي العصفور إذا كُسرت جناحه، والشجر المحروق، والأرض الميتة، والزهرة الذبيحة. كنا لا نأكل إلا إذا سقينا الصفصافة التي تظللنا، والنبتة التي تطعمنا، وداعبنا الريح التي تحرسنا. ثم مضى علينا زمن من الظلمة والحرقة، رأينا أحبابنا يموتون تحت النار، فبكينا وانتقمنا لهم من وحدة اليتم، وجفاف السحاب، وغربان الشوارع الميتة. ثم تكاثر فجأة أمواتنا حتى أصبحوا بلا عدٍّ، فبكينا كثيرا على بعضهم، وتركنا الباقي تبكيه أمطار الفصول الحزينة، ورياح الشمال، وملائكة الله إن وجدت بعض الوقت لهزائمنا. فجأة عندما أصبح الموت يكبر بتوقيت النسيان، اكتفينا بالشجب والغضب، ثم مات الغضب أيضا، وأصبح الاموات يدفنون في الليل بلا دم ولا أناشيد. كثر العدد ولم الحفر الواسعة قدسية القبور. نرى الموت على الشاشات تلونه، فتستهوينا المشاركة في اللعبة على مدار الوقت وفي القارات جميعا. وننسى أن الدم الذي يُهرق بلا حساب على الشاشات، دمنا، وأن الميت نحن. كل يوم نلبس وجها، وننزل لمعارك لم تكن لنا، نقاتل حتى يمسحنا الفراغ.

أدرك اليوم حبيبي، وأنت أسير تاريخ يملأك رعبا، أنك كنتَ على حق، وأن حبي لك لم يكن عبثا. اخترت الرجل الذي اصطفاني برعشة قلبه ولم يتكلم إلا قليلا.

دعني ألفك داخل قلبي لأنسيك العذاب الذي مر بك ورماد الحروب.

أبحث عنك مثل الذي ضيع معدنا ثمينا.

أجيئك حبيبي عارية من جلدي وحتى من ذاكرتي. مكلّلة بالكثير من وجع الحب وطعم الأنين، وبعض فصول التاريخ. هل لنا تاريخ نحبه، أم تاريخ نخاف منه؟ لستُ مريم لأتحمل قسوة زمن لم أولَد له. أتحاشى مثلك قدر ما يسعفني قلبي، ذاكرة أنهكها الخوف من ماض دفين. كان يمكن أن يكون هذا اليوم المشمس أبهى من لمسة ربيع، لو لم يسرقه النزيف الذي فينا.

أجيئك حبيبي محملة بك وبعطر الشهوة وبقايا وجع يقتلني كل يوم قليلا. أمنحك كل ما أملك من فرح وخلايا نور يرفض أن يموت. ليس لي يا قلبي أن أقلل من مراثيك فأنا أيضا متعبة. مثلك لا أملك إلا قلبا يرتجف خوف أن يفقدك؟ لا أملك إعادتك إلى بطن أمك وتشكيلك وفق ما أشتهي. أنتَ فيَّ كما أنتَ، وأنا لا سلطان لي على أنا.

حبيبتك الصغيرة أنا، تحسد قلبك، لأنه ما يزال فيك، وهي تنام في حوافي الظل. تحسد أنفاسك لأنها تسكنك، وهي من تيه إلى تيه بلا معبر نحوك.

تحسد الشمس إذ تخترق بؤبؤ عينيك لتنام فيك، وهي تشتاق ضوءك.

تحسد البشرة التي تغطيك، وكم اشتهت أن تكون غطاءك في ليالي العزلة والحنين، لكنك بصمتك تعيدها إلى عزلة الثلج. كم أشتهي أن أنقلك في درب الريح، ولن أتركك طعما للطائرات تسرقك مني، ولذاكرة الحرب التي انتهكت فرحك.

أحسد امرأة، أية امرأة هاربة تستقبلك في المطارات وتمنح قلبك راحة الوصول وحضن الحنين.

أحسد الكائنات كلها بلا استثناء، من البشر والشجر، والجماد والمتحرك، لأني أرفض أن تذهب مني ولو نحو عطر تفاحة أو نبتة الدهشة. أشتهي أن ألفك في جسدي حتى تغيب فيَّ، ولن يسرقك لا طعم الفجر ولا شمس الغياب.

أحسد الحياة نفسها إذ تمدك في كل لحظة بعمر جديد، وأنا سرّك الأشهى. ألم تقل لي يا قلبي أنتِ كل شيء؟ لا أريد أن أكونك ألا أنتَ، امتدادا للروح السخيّة.

إلى هذا الحد وأكثر، أحبك، فكيف تقول لي تخليتِ عني؟ هل تدرك حبيبي ما معنى أن يتخلى نبض عن قلبه؟ أن ينسحب النور من عين العاشقة؟ تخطئ يا هبلي إذ تصيبني في مقتل جرّبتُه وأفقدني يقيني في آخر الأشياء. اسألني حبيبي أقلْ لك

عن حرقة ما معنى أن نتخلى عن رجل أو امرأة مشت على حد السيف، أدمت قدميها، فقط لتسند ضعفك، وتنوع خوفك.

عندما تحمل قلبا صغيرا في دمك، عندما تسكن شهوة في جلدك، عندما تكبر بحبيبك وتحتمي به، عندما تنتشي بحضور تظنه لك وحدك وفيك، عندما يهزك حنين النوم في كف من تحب، ولا تفتح عينيك أبدا، عندما تظنه أنت ولا يرى دمك غيره... عندما... ثم فجأة تكتشف في حرائق الصدفة أنك لست من تظن، وأنه ليس كما رسمته. وأن الرعشة تلك نامت في كف غيرك. وأنك استسلمت لعين لم ترك في زحمة الوجوه. عندما ترى القلب الذي ظننتَ أنك ملكتَه، التفت صوب شمس بعيدة. وأنك لم تعد قِبلة من تحب، ولا يقينها. وأنك في النهاية، تقف على هامش يتيم، في عمق الظل والقسوة. عندما تكتشف بصدفة القدر الأعمى، أنك وحدك في حرقتك، وأن اللغة التي أتقنتها خانتك في أول خطوة، وأن الصحراء التي رمتك فيها، زادت اتساعا فيك. وأن الوردة التي ظننتَها لك، كانت لعابر محمل بمطر الغريب. هذا هو التخلي يا قلبي وأكثر، إذ تنسى فجأة أن الحياة التي منحتَها بسخاء، ابتلعتها رياح بلا ملامح. خفّف حبيبي من وطء الكلمات الشقية. للتخلّي ذاكرة تتسع وتضيق مثل نظرة العاشقة، ونحن

مازلنا هنا، نصنع الحواف التي نشتهي، ولنا أن نحرق ذاكرة ليست لنا.

ارسمني حبيبي فقط في عينيك بالألوان التي تشتهي، ولك الحرية كلها في اختيار منفاي. لا لغة لي. لا قلب لي. لا شوق لي إلاّك. أتمنى الآن فقط أن أنام قليلا، وأنسى كل ما رأيتُ، كلما سمعتُ، وكلما قرأت من تاريخ عبأني بالحروب، وشل قلبي عن كل حب.

كم أشتاق أن أسترجعك كما لمحتك لأول مرة في سكينة المعابد. أخشى حبيبي فقط أن يخونني يقيني فيك ويستسلم قلبي لقدر لا يحبه. أنا خلقت للحياة وأنت للنور، فلا الظلمة لنا، ولا الموت حرفتنا.

دعني حبيبي، أغفو قليلا فقط، لأقوم قبل شروق شمسي الأخيرة وأقول لك: كم أحبّك.

21 - أغمِضُ عينيّ وأنتفي فيك.

بالأحمر المشتهى، بلون العمر الذي تحب، أنتفي فيك.

اقبلني كما أنا لو شئت، واتركني أنام في رمادي. أهون على أن أحيا بدونك، على أن أنتظر مجيئا لن يكون أبدا. لم يبق لي الشيء الكثير أخسره، عمر مضى، وشوق انسحب بسرعة البرق، وحب يضعني على حافة كل الشكوك. تأتي ولا تأتي، تعود ولا تعود، وأنا في كل هذا، أي جسر أعبر لأراك؟

كنت ضائعة في شارع بلا اسم عندما سرقني الخبر. أسكتُّ صرختي بكفي كي لا أتبعثر. لماذا تذهب الآن يا قلبي وأنا ما زلت أبحث عنك منذ سنوات خلت. ألم تقل لي إن القدر قلم رصاص يُمحى خطه بجرة ألم؟ قلتَ لي أيضا، هنا أنا والقدر خصمان، هو يخط وأنا أمحو، إلى أن يصاب بملل التكرار، ويتركني وشأني. لن أسلمه متعة أن يسرق مني فرحي ويختار لي الطريق الذي يشتهي، لستُ له، وليس لي.

حبيبي، كيف أسمّي هذا، وأي نعت يستقيم؟ ألم تمنحني كل الأمل لأظل معك في بقعة النور؟ ألم تسلمني كل مفاتيح الخير وكلمة السر لنستمر معا؟ لماذا تخليت عني الآن؟ أي طائر

سأنتظر عائدا من رحلة الحنين، محملا بتفاح الغواية، وبرتقال اللذة، وعشبة الأجداد؟ أي حنين يأتيني من بعيد، أمنحه لحظة الخلوة كل دموعي، وأضع بين يديه حرائقي، فيضمني إلى دمه وقلبه. وحدك كنت الأقدر على لمس الجرح الذي لم تبرأ منه طفولتي مصمم أن يظل فيّ حتى الموت. من يستطيع اليوم أن يوقظني فقط ليقول لي صباح الخير يا أجمل عمر...

يا دينك لو تعرفي قدّاشنحبك، ونموت عليك.

حبيبي، اسمعني قليلا قبل أن تنسحب من حياة هشة كالريح، من يُسقط لي المطر عندما أشتهيه، وحين يرى صيفا يحرقني، ويبعثر غيما، وثلجا حينما تكبر ارتعاشتي؟ من يعيدني من تيه الموت إلى مسلك الحياة؟ لماذا تغادرني الآن، وتخون قلبك؟ ألم تقل لي قبل هذا اليوم، إن فيك ما يستعصي على الموت والقدر؟ لن أغادر هذه الدنيا قبل أن أعرّس كل العصافير والأشجار والأطفال بألوان الغيم، وتغريد الفجر. بعدك، أصبحوا يتامى، وأصبحتُ معهم وحيدة، بلا متكأ ولا حنين ولا انتظار.

أستعيد الآن جملك الملعونة التي لا تقدر مخاطرها: عمري ذاب في السنين. اختاري شابا يحبك وامنحيه نصف ما منحتني،

وسيكون سعيدا بك ويبني لك في قلبه تمثالا من عجين...
تضحك، كما لو أن ما قلتَه مجرد نكتة. كم أشتهي أن أعضك حتى أدميك. حتى في النكتة لا أريد هذا.

لماذا الإصرار على موت يمكن تفاديه. ألم يكن ممكنا أن تؤجل رحيلك عني قليلا، فقط حتى أضمك قليلا إلى صدري، وأمنحك من عمري آخر أنفاسي، لنستمر ولو للحظة مع بعض، وبعدها لترمنا العاصفة كل في مدار.

لا أحلم بالشيء الكثير بعد غيابك القاسي. في أعماقي التي هربت من ملمسك وعينيك، شيء من ميراث الآلهة. فيّ ما يحيي عالما من الموت، وحقلا من الشوق، لكنك لم تمهلني قليلا، فاخترت السفر كالبرق في عمق التيه.

لماذا فعلت بي هذا يا قلبي؟ منحتك الحياة عندما وقف الموت عند عتبة بيتك، ومنحتني بعض عمر مازلت ألتصق به كالغريق. كان يكفيني أن أراك تأتي، ثم تذهب وتعود. وأحاول أن أهرب نحو عينيك، فيهما كل أسرارك الخبيئة. أشبع منك كالطفلة عندما تقول لي: أنا في المطار يا قلبي، وسأكون بعد نصف ساعة بين ذراعيك. أو تبحث عني بعينين متعبتين في صالات الوصول. أركض نحوك غير آبهة

بالعسس أو الشرطي الطيب الذي يتمتم مبتسما وأنا معلقة على صدرك وشفتيك: ماذا نفعل مع عاشقة مجنونة؟ وأجيبه بأصابعي فهو يعرف لغة الإشارة: هذا حبيبي. هذا أنا، هذا كلي وبعضي.

ثم أغمض عيني، وأغيب.

22 -كيف رسم السكين زنبقة سوداء على جلدي؟

دم وسكين ووردة مذبوحة، مَنْ وراء الجريمة؟

صمت مطبق. لا أحد ينطق. ومن تكلم خفف من الجريمة: مجرد وردة كانت ستجف في حدائق النسيان. هو من جرها إلى ساحة الكوريدا وأعطى لموتها معنى.

عندما خرج السكين من غمده الأثري، بحث عني. كنت عارية، ولحمي رهن إشارته. لم يسأل عن جزعي، ولا عن خوفي، تحسسني كما يتشمم فريسة. اقترب من عيني، ثن مضى بين النهدين، ثم السرة، ثم أكثر وتمادى بين الساقين. لم أصرخ لأن الدم الذي سال رسم خطا فاصلا بين الموت والحياة. كنت في الموت، داخل الحياة. ثم خط جنونا ورموزا أتت من أفق بعيد: ذاك قرار القبيلة، لأنك أهديت عذرية ليست ملكك، وجسدا محصنا، لا حق للغريب فيه.

لم أكن أعرف أن السكين بلا قلب ولا جناحين. يقتل ثم ينام، ولا يعرف حتى كيف يتخفى أو يطير. لم أكن أعرف أن السكين مثلي ينتحر حينما يحزن أو لا يجد ضحيته. يعيش على الصرخات الأخيرة، لكن عيب السكين أنه بلا روح ولا ذاكرة. لا لغة للسكين غير صوت جاف كما الموجة إذ

تتكسر على الساحل البعيد. لم أعرف وأنا صغيرة أن السكين بلا رحمة ولا قلب، أكبر من الروح، فهو من يسرقها حينما يشاء. قلْ لي من اخترع السكين لأسأله عن شيء صغير: كيف ذبح النجوم وانغرس في صلب الأرض وصدر السماء. كيف تجرأ أن يسرق ما لم يكن له. لا سكين بلا دم، ولا دم بدون روح تتخبط فيه.

هذه الأنا التي كانت، المرهفة كفجر العاشقة، والخارجة من رحم الظل الهارب، كفّت منذ ثواني الليلة الماضية، عن أن تكون أنا. تسربت مني كما اليد من العجين.

هذه الأنا التي تربكها الجمل الهاربة من جرح الغموض، تسربت مثل بخار الساحر، فأعمى كل مسالكها، وسد كل دروبها، وعراها عن آخرها. ثم طلب منها أن تسجد على حدّه. لن يكون دمها، دم القتيلة، لكن دم القربان الذي اختار السكين على السكينة.

هذه الأنا التي ظننتني أعرفها، حملت خنجرها البالي، ورسمت زنبقة سوداء على جلدي، ثم غادرت القلب والدم وبقايا الأنفاس، وكأن شيئا لم يكن. انسحبت التي كنت أعرفها ممتطية موجة بلا اسم ولا عنوان، ولم تلتفت إلا صوب نفسها قبل أن تتحلل. انتظرتها على حافة البرج القديم، في ظل مقام

الفارس المجهول، لكي يمنحني وسادة القلب ويدعوني للنوم طويلا في عينيه، لكني لم أرها. لم ألمس عطرها. ولم أشم حبها.

هذه الأنا الخائفة من هزة اللعنة، خرجت من بؤرة الجرح وانتفت في أنهار التيه، ووجع القلب وسماء بلا ياسمين ولا ندى.

هذه الأنا لم تعد أنا، ولم تعد نورا دعاني يوما ما لحفل الشوق. خرافة من ألم وصخب، وهواء من جفاف. بحثت عنها بشق الروح، فلم أجدها الا أثرا طفيفا تغطيه بقع دم جف، على رمل الساحل، تشبه خطو عاشق خذلته الخيبة وخديعة الشمس.

تلك الأنا الذبيحة، ليست أنا. مازالت سواحلي تملأ كفي بزرقتها التي لا تمحي، وما تزال الشمس في قلبي، تمسح عني ظلال الخوف والعزلة. ما تزال غيمتي في حقيبتي، ترافقني في رحلة الغيم، كلما جفت السماء، وضعتها على رأسي وانتظرت قبلة مطر تصنعه الكلمات التي لم تمسسها يد قبلي.

هذه الأنا لا تشبهني ولا أشبهها، تربت في عز الحروب الأهلية، وفياضات الدم. طرقنا ليست واحدة، أنا الضحية بكل لبسي، وهي القاتلة.

جسدي مستباح. لا عاصفة تطالب بلحمي ودمي. دمي ماء وألمي صرخة في واد بلا صدى. لمن أشكو ألما من كثرة تكرره،

لم يعد يثر أي انتباه. مثل حروب الموت المتتالية التي سرقت فرحي وكل ثقتي. الضحية الأولى تؤذينا. الثانية تجعلنا نفكر في الآتي. الثالثة نبكي ونتعود على الموت. الرابعة نترحم عليها ونمضي، ونمني النفس بجنة الشهداء. الخامسة نسأل عن عدد القتلى بحيرة. السادسة نحمد الله على أن العدد توقف عند التسعين أو المائة. العاشرة نمشي بصمت ونعوّد الذاكرة على النسيان. ننسى فجأة أن موت شخص واحد في حرب ظالمة، كأنه موت الناس جميعا. كلما استراحت الذاكرة من دم السكاكين، شعرنا بأن الدنيا بخير، ونمنا قليلا قريري العيون، إلى أن يصبح الموت في الحارة، ثم في البيت، ثم في الجسد، حينما يعبره الرصاص، ورؤوس الحراب، وحِدّة السكاكين.

حبيبي اعذر جهلي، فأنت عشت حروب الرماد، تتلوى كل يوم في كفن جديد، لكن الموت لم يأت. لم أكن أعرف أن السكاكين مثل البشر، بلا رحمة ولا ذاكرة، يأتون ثم يمضون، ثم يضحكون ويشربون، ويزيد ركام المقتولين والشهداء المظلومين. وموسيقى الليل مستمرة، ونباح الكلاب أيضا، وصراخ المذبوحين.

حبيبي اعذرني، أشتهي أن أضع رأسي بين يدي وأنام.

23 - تحت ظلّ شجرة الفتنة والغواية

جدي كان هنا، عندما كانت المدن الأخيرة تشتعل، وتسقط الواحدة بعد الأخرى.

ماذا بقي منك اليوم؟ صباح الخير يا برتقال إشبيليا، يا زهو أجدادي الأوائل. صباح الغواية يا شجر النور ومسافات القلب. صباح الخير لظلال خوف مضى تحت سيوف الظلم وسنابك الخيل، وشوق أتى مثل نجمة العاشق. صباح الخير في انتكاسة الوقت من جديد. كل المدن التي بنينا بالدم وعرق الهزائم، تموت الواحدة تلو الأخرى. فرادى وجماعات. تسقط من الأعالي بلا رحمة.

كم أكره السياسة، وكم قدمي اليسرى ملطخة بها.

أمضي في سؤالي ولا أنتظر إجابات تقنع قلبي وجنوني. كم عمرك الآن يا شجر الفتنة والهبل؟ ساعة؟ يوم؟ شهر؟ سنة؟ قرن؟ لا زمن في الحب سوى ما ينسجه الليل من نور، وما يخفيه النهار من ظلال، وما يمنحه الوقت من جنون.

صباح الخير للملمحك الذي صادفته وأنا في خلوة جدي، أشم عطرك الهارب نحو ذاكرة القلب .كان البرتقال جنته إذ يفتح الموت جهنم النهاية. لم يسأل يوما عن فاكهة أخرى. وعن

لذة غير تلك التي راودته في عقله. كان يقشرها بحب وسكينة وانتظار، كمن يعري امرأة يعشقها حتى تتجلى الحياة بالنور المخبوء.

كان البرتقال ماء حياته، إذ تموت من العزلة، السواقي.

كان شوقه إذ تغفو الحواس من فرط التيه.

كان سحره الأبقى أذ يمّحي كل لون السماء. من يعرف الذي أعرف؟

رأيت برتقال إشبيليا كما لم يره أحد. يتسلل من ثقوب صخر القبة، ليفتح نورا في قلب مصلّى يذكر فيه اسم الله. رأيته يعبر نوافذ الخوف لينبت على أيقونة الصلب، ويكبر بين أنامل مريم. رأيته ينزل أيضا بظله الغافي على كنيس موسى، ويفتح ساحة للحب على جليد الأحقاد. رأيته يسحب سلم الكون من أيدي أئمة الزيف، ويدعونا بلا وسيط أصفر، نحو معراج النور. يغسل القلب المتعب في ماء الشمس وعطر الغيم ورعشة العواصف. يمنحه برتقال الغواية لتغيير سنن الكون، ويرمي بتفاحة الفرقة نحو شيطان أصبح يخاف مما يرى ويسمع.

لم تكن التفاحة شأنا عظيما. فاكهة الفرقة عندما مسها الشيطان بعسل الغواية الخادع. لم يكن آدم ذكيا، ولم تكن حواء مدركة للعبة. وعندما فقدا الجنة وحاما في الأرض طويلة.

وبالقرب من بيدر على ضفاف النهر، تدلت شجرة البرتقال، مثقلة بنعومة فاكهتها. تأملاها لم تكن تشبه التفاحة إلا في دورتها في كف اليد. رائحة من دهشة، وملمس من مخمل. قالت حواء وهي تنظر للخلف، وترسم خوفا في عينيه:

- يا آدم، لا تختلف عن تفاح الطرد إلا في اللون. الباقي من نسل واحد. أي تيه ينتظرنا بعد رحلة الشقاوة والخوف؟ هل هناك جحيم غير هذا، سنعبره من جديد.

- يا حواء. يا مصدر النور، وأنفاس الله. يا شأن الشيطان لأنك الأذكى. يوم تخلص منك كان يعرف جيدا أني لن أقاومه أكثر من هجعة، أو كابوس. التفاحة كانت غواية الشيطان ولعبته. عطر زكي، لا ماء فيها ولا روح. لعبة يتسلى بها ويضحك على ذقن الأغبياء. البرتقال شيء آخر. القشرة ليست قشرة، نعومة مخمل وداخل من بياض القطن. ماء مفصّص بكرم التقسيم وعادل بحكمة من أنبتها، في ذلك المكان بالتحديد. تأكل وتشرب منها، وترضع من مائها وتفكر في حب امرأة حزينة، مثلك تتشهى الذي في القلب وحرائق اللذة. البرتقالة أكثر من غواية يا حواء. حياة.

أكلا منها، وارتويا من عطش كان كبيرا. وحملا الكثير لتفادي ميتة التيه.

صباح الخير يا عطب الروح، من رمادك يقوم النور وتنتفي ظلمة القيامة. صباح الخير أيضا لطائر الشغب إذ يحفظ عن ظهر قلب سر البرتقال فيضحك من خيبة الفاكهة ويقين التفاح . صباح الخير يا جدي، كم كنتَ نبيها يوم جئت بغرسة ورميتها في بدء المنحدر، على أرض جرداء، كانت بورا. عرفتَ يا جدي كيف تصاحب الريح وتصبح عشيقا للمطر، وكيف تركض مع الثلج، ثم تنزلق من رأس الجبل، حتى سفح الوادي. وجعلت من تربة البراكين المحروقة حديقة للعيش وبيارات للحياة.

صباح الخير يا سيد قلبي. أنا قادمة لأضع رأسي في حضنك، أشم عطر السنوات وعرق الركض وعذاب الهزائم، وأغفو كما العصفورة التي فقدت ريشها وبعض جناحيها.

صباح الخير يا برتقال إشبيليا، يا زهو أجدادي الأوائل.

هنا كبرت الحياة الأخرى، وهنا ماتت. لكنك أنت هنا ولا غيم يغطيك.

مضى زمن وها أنا ذي أعود إليك، أسألك عن البرتقالة الأولى، واللمسة الأولى، والمتعة الأولى. كيف أحسست بلذتها؟ كيف نسيت الدنيا والعرش، وانحنيت لها، يوم صنعت منها استراحة العاشق ونبل المحارب؟ كيف أنبتها في حدائق الله، لتنسينا جرح التفاح؟

24 - أريد فقط أن تلوِّن لي المستحيل

هل هذه التي أمامك أنا؟

أشك في ملمحها وكحلها الذي صنعته بيديها.

هل هذه أنا، أم أنا ثانية نشأت من عواصف نامت في القلب طويلا؟ ربما كنتُ غيري، امرأة تعودتَ عليها فقط. لم أعد أعرفني. لقد سُرِق مني كل شيء، حتى أصبحتُ شبيهها في الشكل لا أكثر. سأعرّيني أمامك المسني بنشوة المنتظر، ورعشة العاشق، وقل لي هل هذا الجسد لي؟ هل هذه أنا؟

ماذا يحدث لي حبيبي؟

هل تذكر قليلا ما جرى؟ في مثل هذا اليوم صحوتُ على وردة القلب بين شفتيك. رأيتك عند عتبة الخوف تقول لي ما في القلب، قبل أن تنسحب: أخشى أن أموت ولا أشبع من ملمس الحرير في روحك، ولا من عواصف جسد سُرق منذ القيامة الأولى، ولا من لغة مضيئة دفنتها الطفولة في قلبك، وأغلقت عليها بإحكام مخافة أن تضيع. أبحث عنك بلا خوف منّي، وأنا لا أعرف كيف يمكن أن يكون العاشق ضحية حلم سرقه في غفلة حزنه.

ماذا يحدث لي حبيبي؟

أهي علامات جنون العاشق؟ الأبواب موصدة، وقصور الطفولة خالية، لا يعبرها إلا عارف السحر ورمز الغواية. لم أتعلم طوال الزمن الذي مضى كيف أحبك وأفك أسرار بعدك. ينتابني الآن حنين الركض نحوك أنى كنتَ، في قلبي أو خارجه، أو حتى على ضفافه القلقة. أمنحك الحياة كلها، لكن لا تقل كلاما مستعادا، مرّ عليه خريف مات وانتهى. قل ما يسعدني. لا تعتذر عن زمن لم نعرف كيف نمسكه كي يبقى قليلا. ابحث لي عن دوار آخر غير الذي أعرفه، يفقدني توازني، وما تبقى من استقامتي وعقلي، ويدمي هبلي للمرة الأخيرة، فأنا لا أنوي العيش بعدها. لا تقل مثلا حبيبتي أشتاقك وأفتقدك. كلام وزعته كثيرا كذرات الملح والسكر للعابرات بالقرب من سواقيك. لا تقل لي فقط يسكنني قلبك وظلك، وأنت أجمل من يأسر قلبي... ابحث لي عن شيء آخر، يجعلني أهتز وأخاف من سحر الجملة. كل هذا أعرفه، وأعرف أكثر منه، أنك مثلا أصِبتَ بي كما يُصاب عصفور في مقتله، برذاذ الفجر العاشق، أو كما تصاب سماء جافة بغيم تلون بالسواد ليعزّي شمسا خرجت قبل موعدها. لا تقل لي أحبك، ثم تقبلني كما العادة عند عتبة البيت، مثل سارق النار، هذا أعرفه، وشربتُه برفقتك عندما جفّت المدينة،

وأخافت ساكنيها. لا تقل لا هذا، ولا حتى ما تنوي قوله.

أريد فقط أن تلوّن لي المستحيل بحبك، لأدوخ مرة أخرى بين يديك، وأنسى جاذبية التيه. لستُ سمكة تفسد من رأسها، لكني امرأة تموت أولا من قلبها. أريدك أن تغرقني في حرير أصابعك حتى قبل أن تلمسني، وأن تشعل موتي لأستيقظ فيك من جديد.

ماذا يحدث لي حبيبي؟

أنت أمام امرأة لا عين بريئة من حرقها، ولا يد ليس فيها من دمها. أسحرني فقط، واسحبني نحوك من بعيد، وقل لي ما لم تقله للغيم، ولا للطير، ولا للمطر إذ يعاتب نسيانك وغيابك. منذ أن غادرتك قبل مسافة، وأنا أعيش على جنون عطرك، ودوخة عرقك، وتصيد كل خبر يخصّ قلبك فقط لأقول، حبيبي ما يزال هنا، وما تزال تربة الطفولة في كفيه. أسكن فيه برضاي، حتى يرثني الله والملائكة وبعض الزبانية الخائفين من هبلي ومن أسئلتي، فكيف لعاشقة مثلي أن تهدد عرش الجنة أو جهنم؟

جئتك حبيبي فقط لأشعر أنك لم تعد لغة يتقاسمها من أحبّوك، ولكنك ملمس وحياة، كما أنك لستَ جملة هاربة في كتاب عاشقة تشتهي أن تفتح أبواب عزلتها وتلون المستحيل.

ستضحك مني. هذه أنا ولا ظلّ ورائي سوى ظلك. أشتهي الليلة أن أكون فقط قطتك التي تلعب بكرة الحرير، وتبعثرها أمام عينيك عن آخرها، ثم تتأملها قبل أن تقفز عليها، غير معنية بالنظام ولا برأي من يرصدها. أريد أن أرفع هذه الكأس على نخبك، وأنسى كل الخوف الذي يسرقني منك. أن أرفعها نخب اليوم الممطر الذي لم ينتظرني حتى ألبس له معطف الشتاء، ولا لوز الربيع ولا حتى مطرية الخريف. فاجأني كما تفاجئ عاشقة حبيبها في غفوة لم ينتظرها.

اعذرني حبيبي أن أمارس بعض هبلي عليك. مثلا أن أتخفّى وراء زجاجة النبيذ التي تجمعنا على الغواية، فقط لأرى وجهك في دوار اللحظة، في غفلة منك، وألمح هزات قلبك وضياعه. هل حسبت الوقت الذي يفصلنا؟ ليس مهما. اسمح لي فقط بأن أتمدد قليلا على قلبك لأشعر بأنه ما يزال هنا، وأنك لستَ بعيدا عني، وأن كل ما مضى من خوف مات في ظلّ الموت.

هذا الزمن الهارب ليس في مقدوري أن أوقف انسحابه، ولا أن أمنعه من الخروج، لكني قادرة أن أسكِنه عرشي الذي يهزّ يقينه بالذهاب. لا تقل شيئا حبيبي، دعني فقط أدفنني فيك، وأملؤني بك، لكيلا أندم يوما على فعلٍ مثل كتاب معشق

بالحب، نسيت أن أفتحه وأعيشه، فليس في الحب إلا ما يدهشني ويعيدني إليك.

دعني أسمع دقات قلبك لحظة يُجن بي، ولا يصغي لأحد غيري.

حبيبي، لا تقل لي ما تعودت قوله لغيري، لوّن لي مستحيلي، وامنحه لقلبي، غيما يظللني.

إنها تمطر يا هبلي، وأنا ما زلتُ في الشارع أركض نحوك، وأتخيلني أفتح باب غفوتك. حلمي اليوم أن أفاجئك كما فاجأني الغيم والمطر وأنا بلا معطف ولا مطرية، ربما استطعت أخيرا أن أتدثر بك من رعشة البرد، وأنام أخيرا.

25 - ومن الجنون ما يجعل الحياة عبادة

حبيبي الذي انتفى فيّ، مُصابة بك يا سيد الغياب الكبير.

تقتلني غفوتك وسلطان غيّك. يقتلني سهوك وغيابك.

تقتلني أنت بصمتك وهروبك. تقتلني أيضا سماؤك.

أنا هنا بين سحر أناملك قبل أن يفتح الفجر قلبه وعينيه.

هل ما زلتَ تذكر حبيبي أم سرقتك الأسفار وأنداء الفجر ونساء الصدفة الجميلات؟ أما زلتُ فيك كما الطير إذ نقر الفرحة في كفك ثم حلق بعيدا كي لا ترى حزنه الخفي؟

في مثل هذا اليوم صحوتُ على وردة القلب بين شفتيك. تلمست خطوط وجهك برعشة خوف أن أشعل عمرها الهارب. رأيت بؤبؤ عينيك فقط لأقرأ المسافات والأقوام والبحار التي تخطيتها مغمض القلب، لتحط بالضبط حيث قدِّر لك أن تدهشني قبل أن تسرقني. رأيتك عند عتبة الخوف تقول لي ما في القلب، قبل أن تنسحب: أخشى أن أموت ولا أشبع من ملمس الحرير في روحك، ولا من عواصف جسد سُرق منذ القيامة الأولى، ولا من لغة مضيئة دفنتها الطفولة في قلبها، وأغلقت عليها بإحكام مخافة التيه والنسيان. أبحث عنك بلا خوف منّي وأنا لا أعرف كيف يمكن أن يكون العاشق ضحية حلم سرقه في غفلة حزنه.

ماذا يحدث لي حبيبي؟ أليس لي عقل وذاكرة وجسد وحياة ملمسها من حقيقة، أم مجرد افتراض، سيسرقه الصباح وهزات الخيبة؟ أي سحابة رمتك في الظلمة اليسرى من القلب؟ أهي علامات جنون العاشق المفدى أم رحلة رجل التيه في دم امرأة؟ من قادك نحوي؟ من هبّلك قبل أن يسيّرك صوب خوفي؟ أي قدر نزعك من شجرة الجنة ثم نفخ فيك من روحه ثم رماك نحوي؟ هل كنتَ منتشيا وانت تسقط ريشة ناعمة في عمق كفي؟ أأنت من رأيت في حلم الطفولة؟ لماذا تركتني أنتظر حتى انتابني الموت والخوف؟ ما الذي عطلك؟ أية امرأة سرقت طريقك؟ أية ريح رمتك في غير معابري؟ ربما لأن صوتي أبح وندائي تأخر كثيرا قبل أن يصلك. لماذا تركتهم يعبثون بسري وأنا ولدت معك وفيك ولك، بقلب واحد، ورئتين أخلصتا لهواء الفجر، وعيون تستحم في كل ثانية في شمس خلقت لنا؟ ألم نلتف بحبل سري واحد ويوم قطعوه محوا كل علامات السحر والسر وأسكنونا في تيه هم من اختاروه لنا. لم أتعلم طوال الزمن الذي مضى كيف أحبك وأفك أسرار بعدك. ينتابني الآن حنين الركض نحوك أنّى كنتَ، في قلبي أو خارجه أو على ضفافه القلقة، أو حتى في حضن امرأة غيري. فأنا أعرف أني سكن حبيبي وملح وفائه. عاشق أبدا لكن الخديعة لا تشبهه. حبيبي. يا طائر الفرح الهارب. أمنحك

الحياة كلها لكن، لا تقل كلاما مستعادا، مرّ عليه خريف ثم خريف آخر، فثالث ثم خريف غام فيه العد، مات وانتهى.

لا تعتذر عن زمن لم نعرف كيف نمسكه كي يبقى قليلا. لا يهم من منا ضيعه، ولا من نسي أن يرصع قلبه بمرايا الشمس. يهمني فقط أنك عدتَ من غيب كاد أن يدفنك. ابحث لي عن دوار آخر غير الذي أعرفه، يفقدني توازني وما تبقى من استقامتي وعقلي، ويدمي هبلي للمرة الأخيرة. امنحني بفرحك قدرا آخر يجعلني أتحمل هبلك. فأنا لا أنوي العيش بعدك سوى لأنجب هبلا جديدا يمنحني حقي في أن أجن بك ومعك وعليك أيضا، ويضعني بين يديك خارج مدارات الخوف والضغينة. هزني بعنف الغواية ولا تقل لي ما سمعته من غيرك. ميزني كي أكون لك في صحوك وغيابك

هل لي أن أحلم قليلا أن ما بيننا فوق العواصف وهزات الموت؟ وإذن كيف كفرتَ بالنار التي جمعتنا والأشواق التي طرزتنا؟ هل أنا إلا مريم الفرح المؤجل، أم امرأة أخرى بلا هوية ولا أسماء؟ خذني كما لو أنك تفتتن بي لأول مرة. كما لو أن الدنيا فتحت فجأة كل نوافذها ليدخل النور دفعة واحدة، ويسكن قلبينا. كما لو أننا التقينا قبل أن يخدعنا الوقت، والتقينا مرة ثانية في عمق صدفة لم نحسبها.

صباح الخير يا شوقا مستعادا من جرح الحرائق الكبرى. يؤلمنا لكنّا في قمة الفرح أنا التقينا في غفلة من جرم الغياب.

صباح الخير مريم المسروقة في غفوتها والمستباحة، أنا أو شبيهتي المخذولة أمام خلق يصفقون لكل **أت** آت من ظلمات الأقدار الملعونة. يا سيدة الصبر والسكينة، التي كلما مررت أناملها على الجراحات جفت، وعلى الخوف، اختفى، ما الذي يبقيك هنا إذن، صامتة، لا لغة تنقذها، على حافة الشمس والمطر والرياح. شبيهتك أنا، لا أعرف المسالك التي تعفيني من الكلام، ولا الحجب التي تنقذني من شر العيون.

سنة تمضي وأخرى تجيء محملة بالأسرار. سر واحد نؤجله في كل ثانية، خوفنا من أن نفقد من نحب ونتركه لعبث الغياب. أن تسرقك مني عواصف الشتاءات القادمة، والخيبات النائمة، والفجيعات المتربصة بك، وبي، وبنا. منذ أن شربنا حليب هذه الأرض، وأكلنا من تربتها ونحن نحلم ونصر على التشبث بطفولة القبلة الأولى، ونتغاضى عن زمن يتهددنا. حرب الحياة ليست مسالمة أبدا، فقدان بلا هوادة.

لقد خرج هذا الصباح بعض الذين كنا نحبهم، وكلما مررنا على أحجارهم وحدائقهم صفقوا فرحا. لا استطعنا الحفاظ عليهم كما افترضنا في أول يوم، في قسَم الوعد الأول، والبسمة

الأولى، والغمزة البكر، لا استطاعوا أن يكونوا كما كانوا، ولا استطعنا أن نسكنهم إلى آخر لحظة. أهي الحياة حبيبي نعيش شعلتها ولا نعلم ماذا ينتظرنا في السفح، المحاذي للبحر والوديان والموج اليتيم.

كلما فتحت اللغة أبوابها، سحبناهم نحو ظلمتها، وسكناها حبا في ذكراهم.

كلما شرعنا نوافذ الحياة، أدركنا كم إن السحب العاشقة قريبة منا جميعا، وكم أن إن الشموس مضيئة، وكم أن إن العصافير حرة، وكم إن الفقدان مر، يسبقنا كلما ركضنا نحو فرح لم نفلح في صنعه .هل نمضي العمر كله في تعداد الأسماء التي فقدناها؟ كثر حبيبي ولا جدوى من العد، فالموت لن يسمعنا. لقد التفت صوب خرابه مزهوا بكل ما أحدثه في الناس والحيطان والنفوس التي أطفأ قناديلها. لا جدوى من عد لا يفضي إلا إلى أحزان أخرى. دعني فقط أجن على مرآك، وأحلم أنّا لن نموت أبدا، وأنا سنقاوم الحرائق كلها التي أنبتوها فينا، بما نملك من قوة الصمت، ولغة من سحر الأنهار ودهشة العاشقات.

كم الحياة مذهلة يا غيمي وسحابي الساحر، دع لقلبي فرصة التخفي والحلم. وكم هي مظلمة أيضا؟ خادعة حينما ترفض

أن تمنح القلب سكينته المرجوة، وخائنة حينما تنشد ترتيلة الأبدية بخداع. هل يكفي أن نحب بعضنا بالقوة التي نخفيها، لنستمر معا إلى الأبد؟ هل يكفي أن ألمسك كما الساحرة وهي تبحث عن جنها الذي احتل الجسد وتخفى فيه، وأقعده في صلب جنون لا يشبه هبلا نعرفه ونريده. كيف أطرد خوفي عليك دون أن أؤذيك؟ بل هل تكفي قبلي الأولى، الخجولة مثل جمرة، للاحتفاظ بالشعلة حية؟ هل يكفيني أن تكون كل وجودي، في سري وعلني. أنسيت أنك يوم وضعت خاتمي السعيد في إصبعي ماذا قلتَ لي؟ محكوم علينا ألا نتزوج، كلانا مسروق إلى أجل غير مسمى، زوجتي أنت بشرع الحب وحقيقة الروح.

كم الحروب قاتلة حبيبي، وكم الموت مخاتل، وكم ما زلنا صغارا على الفقد الأعظم. كم القلب شقي، وكم العيون خادعة، لكنها بالرغم من كل شيء، هي الحياة.

ألم تقل لي يوما وأنت تحصي الطرقات التي سلكناها معا، التقينا أم لم نلتق، بقينا أم انسحبنا في لمعة البرق الخاطف، سنظل هنا على حافة فرحة طائشة، نصارع بالحلم، ما تزال على الخرائط الواسعة، مدن لم نزرها، ووحشة لم نعرف كيف نصرفها، وحنين يكبر فينا كلما صغر الحظ أو اختفى.

لنا أن نرفض كل شيء، إذا استطعنا، ولنا أن نحرق كل المسافات التي تفصلنا، إذا استطعنا أيضا، لنا أن نهرب ونتخفى وننتظر أن يخرج فصل القفر والظلمة، لكن لا حق لنا في أن نتخلى عن شعاع يسكننا، ويد شكلتنا كما شئنا وكما شاءت، في أوقات الغفلة.

الصمت حكمة، تنفس كثيرا ولا تتكلم. الكلام يفقدنا طعم سحر الأشياء.

لا تقل شيئا حبيبي، دعني فقط أدفنني فيك، وأملؤني بك لكيلا أندم يوما على فعلٍ نسيت أن أفعله وعلى حرقة أخفقت في أن أشعلها لكني لم أستسلم لطائر الشؤم وعصف ريح الشمال التي كلما قلت وجدتُ أخيرا حبيبي، سرقتك مني. لست امرأة اليأس وان ارتديت كفنا في حزني وبحثت في كل ثانية عن وجه يشبهني. فليس في الحب إلا ما يدهشني ويرميني فيك ثم يمضي. دعني أسمع دقات قلبك لحظة يُجن بي، ولا يصغي لأحد غيري. قل لي أنت لي لكي أهدم كل عرشي وأسكنك. قل لي ما لم تقله من قبل لغيري، أو اصمت ودعني أقرأ كل أمكنتي ونيراني فيك. لا تعتذر عن حب خُلق على مقاس عاشقين، لن يركب على غيري وغيرك. حبيبي. امنحني بصرك لأراك، وقلبك لأحبك، ولذتك لأرضيك وقوتك لأهزك. لوّن مستحيلي، وامنحه غيما يظللني وفرحا لي، ملكي لا شريك

لي فيه. أتعبتك حبيبي، اعذرني. من يسكن المستحيل لا يلوم الممكن. إنها تمطر، وأنا ما زلتُ في الشارع أركض نحوك، وأتخيلني أفتح باب غفوتك وأدخل بلا استئذان.

حلمي اليوم أن أفاجئك كما فاجأني الغيم والمطر وأنا بلا معطف ولا مطرية، ربما استطعت أخيرا أن أتدثر بك من رعشة البرد، وأنام. أنام طويلا وعندما أستيقظ أراني فيك.

أبدع لي حياة أخرى وادفع بي بلا رحمة نحو دوار التيه، من الجنون حبيبي ما يجعل الحياة عبادة.

26 - لا تدعهم يسرقون هذا القمر

من قال إنك ملك للماء والريح؟

هذا الوجه لي وليس للون وحده. هذه الملامح المنداة بعطر الغياب أعرفها، ما تزال مغطاة بتربة المسافات، أعرفها كما أعرف باب حديقتنا. نم قليلا. غدا سيكون مثقلا بالريح وبعاصفة ترتسم على حواف القلب منذ أن استبد التيه. الحياة التي تمضي كل يوم تسرق يقينا بنينا عليه وهما جميلا. كم أحتاج لأن أمنح قلبي فرصة أن يرتاح ويراك في الحلم كما المشتهى، ويكتفي كما الطفل بلعبة مزورة. نم قليلا. المعابر التي تعودتَ عليها لم تعد سالكة. ملامحك الترابية تفضحك، ونظرتك الحائرة كنظرة نبي، ترميك في عمق المسافات.

متعبا أصبح وجهك وقلبك وخطاك. لا نور فيه إلا بقاياك وبعضا مني. لا وجه، ولا حياة إلا أنت. لا شوق إلا لك.

حلّق كما تشتهي خارج سرب المهاجر، وانس ما تعلمته في المدرسة، وحتى ما قالته لك أمك والجيران. الطيور تقتلها الظلال والشماتة بعد القبض عليها، ولا تموت بفعل التحليق أو كلل الجناحين.

سهل أن نخط طريقا للكائنات نحدد فيها كل ما يجوز، وما يحرم فعله.

سهل أيضا أن نلعن حرائق القلب، وسهل أكثر أن نقول إن الفراشة أخطأت حينما اختارت طريق النار.

سهل أيضا أن نصنع ممرات بالأبيض والأسود، أو حتى بالألوان لكائنات لم تعرف يوما مكانا للراحة والنوم.

سهل أن أسرق ملامحك وأصنع لك وجها خارج المشتهى، لكن يا قلبي أما عرفتَ أن الحياة شيء آخر؟ مسلك من هشاشة ومعابر من أوهام. يسعفك القلم إذ تخط مصيرا، وترتبك أمام خيبة المطر والريح فيك.

دعك من كل هذا. لم يعد ينفع اليوم. انس كل يقين نقشناه معا على الماء أو في كف الخوف.

دعني ولو قليلا، أقرؤك من تعب خطوط الوجه، وألوان الخوف في عينيك. اقترب مني أكثر، ودعنا نخاتل يقين موت يكبر كل يوم فينا، ليمنحنا بعض المستحيل. نحن نستحق المستحيل ويستحق وجهك هذا النور الذي يكبر فيك.

ماذا سنخسر لو محونا كل خطوط القدر، وفتحنا أعيننا وكأن الحياة أبد جميل، وأننا آخر عاشقين في الدنيا يستحمان على مهل خارج سلطان الموت. لا حياة إلا أشواق نركبها كما

الحرير، ولا يقين إلا موت ينتظر. لاو حرف لاإ ةعداخمب رالدقلأا.

دعني أذكرك ببعض ما مضى، لقد بدأ النسيان يسرق تاريخ حياتك.

أتذكر أني رأيت وجهك لأول مرة، في منعطف كان يقود إلى ساحة ومعبد صغير. كنتُ مشلولة القلب لا أصدق أنك أخيرا وصلت بعد رحلة التعب الكبير. كنتُ فجرا بلون قمر صغير، وكنتَ شمسا أكبر من حياة واحدة وأقل من حلم. وقفت فجأة وراءك أتبع ظلك، وأتفرس في شمس مثل رغيف. كنتَ على حافة الماء، تغطس كغزال البراري الجافة. تندفن تحت الماء، ثم تعود لتسكن سريرك تحت الظل. تأملتك طويلا بعين دافئة، فأدركت أن ما سينشأ بيننا لن يكون قصة طارئة. مع أني جانبتك قليلا كي لا تغرقني. فقد نبهني قلبي بخفقة زائدة، أن أحذر منك. ثم رأيتك محاطا بالنجوم، وأشعة شمس الصباح الأولى، تحتفي بالماء، وبالناس وشهد الورد، وموسيقى القلب.

أيها الوجه الهارب، وكأنك ساحر. بنظراتك السخية، تهبُ العابر ملجأ، واليتيم حنينا، والأبكم لغة، والمذنب إصغاء، والهارب الحالم استكانة، والقلب المتعب صدرا يسعه. كيف لي أن لا أحب التفاصيل التي تصنع ملمحك. يوم سحبتني

نحو دفء عينيك، أدركت بسرعة أن مصيري المربوط بشعرة الحب الناعمة والهشة، قد تماهى أبديا بشيء لا أعرف سره، لكنه يشبه كلك. لم يكن لي خيار تفاديك وتأملك من بعيد فقط لأحسد الشمس والنساء فيك.

أسكنتَ يتم مصيري في كفك اليسرى، ووضعتَ قدري كله في كفك اليمنى، ونداءات القلب أيضا لم تنج من نظرتك الحائرة. كنت سعيدة أن أفقد بوصلة الأمكنة ونظام الوقت، وأصداء الروح. كان يقيني كبيرا بأنك كنت تسمعها في خلجان نفسك. كنت في عمق عينيك، موجة بلا زبد ولا مرافئ، وكان عليك أن تمنحني كل ما تملك من حنين لتوقف تصدعي وهياجي.

على الرغم من زمن أصيب بلعنة التيه، ما يزال بوجهك طعم زبد البحر، وخوف العين السرية التي نبتت فيّ، وبقايا الصخر البركاني. لم أكن أعرف أني في الحب لست أكثر من طفلة شاردة في ملكوت المبهم. تعرف منذ أصيبت بك أن القدر يخفي لها حكاية تقتلها.

ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير التشبث بظلك وألوانك وأفراحي وأناشيدي؟ ما سر قوتي أمام ضعفي؟ وما سرّ ضعفي أمام طغيانك؟ كان يمكن أن ألمس حرير قسماتك،

قبل تلك الصدفة المصنوعة بإتقان. كان يمكن أن نسبح في نفس البحر، ونعترض نفس الموجة بصدورنا كالأطفال، قبل جيل. قبل أن أخافك، وقبل أن أخاف من عزلة نفسي، وشطط خوفي، وخديعة ضعفي بين عينيك.

في ذلك اليوم البحري الذي انتفى بسرعة، هل تتذكر؟ ارتبكت قدمي وحضنتني بين ذراعيك وأنت لم تعرفني بعد. ارتعشت من النور المباغت الذي سكن في قلبينا. قلتَ لا تخافي. من يحرسه البحر والموج العالي، سيظل سره مستورا. عندما انسحب وجهك قليلا نحو الظل، رأيت الروح تنتفض والجسد يستيقظ من غفوة لم يكن صانعها. في الحب كما في الحياة، طفولة ما تزال هنا، ترتبك كأية ورقة في مهب ريح العاصفة. ومراهقة تبدو فيها الأشياء سهلة المنال، وتصبح أنانية الحب هي سبيل الأجمل، نحو الحب ونشيد أولياء الصلح والخير. ثم يأتي سن الرشد بسرعة لا أذكرها. وننسى أننا كنا أطفالا، وأننا كنا نحمل حبنا في سهونا، ونومنا، ومشينا بلا أسئلة على الحواف. ونشبك على الحب بأظافرنا، خوفا من أن يتبعثر ويموت ونحن نظن أننا نحميه من تلف النهايات. نطفئه قليلا كي لا يُسرق منا، كما كنا نفعل مع سحر القناديل. ونحسب ما تبقى لنا من زمن، ومن عمر كي لا ننسى أن شعلة الحياة هنا، ولا تنتظر.

هنا كما العلامة في الشأن العظيم، لا ننسى أبدا، عندما تنطفئ الشعلة المقدسة، تخبو الروح، ويستسلم الجسد لسلطان الوقت، ونسير بسرعة لا نعلم كيف جاءت، نحو التلاشي.

لا أملك غير الصرخة في العزلة، بين موت الفجر وانتهار النهار، والصرخة تحتاج حبيبي إلى من يسمعها، فاسمعني، لا تدعهم يسرقون هذا النشيد. لا تمنحهم فرصة أن يسرقوا القمر، والشمس وبقايا الكواكب، أو يغيروا ملامح وجهك، أو مسالك قلبك. أحبك.

فأنتَ كما أنتَ، ولن تكون إلا أنتَ.

27 - ألبِسْنِي ملامحك المُشْتَهَاة

لا أعرف معنى أن تكون صوفيا، أو كائنا خارج نظام الأفلاك.

ما قتلوك يا مسيحي الصغير ولا صلبوك، لكنهم يريدون أن يسرقوك. لن أكون مريم التي تبكي على الذي مزقته المسامير وسياط الرومان. سأنبت الأظافر مثل حد السيف، في يدي. لن أكون مريم التي تتألم في صمت الأنبياء، وتنتظر في المغارة أن يبعثك الله.

وجها لوجه أقف الآن أمامي. امرأة انقسمت إلى اثنين.

أنا فيك حين تصبح أنت فيّ. وفينا حينما نلملم شمل اللغة المشتركة، وننسى قليلا فتنة الضياع.

صرنا واحدا، والواحد فينا لا يحتمل التعدد. حبيبي لا ترهق قلبك بالأسئلة. قسماتك الجريحة تقولني حينما تقولك. لا داعي للشرح.

دع عنك القتيلة والقبيلة، والفتيلة كي لا تخبو، وسطوة العين القاسية. دع عنك الأمراض حتى عندما تشق القلب وشعر الرأس وتهرب بك نحو صمت المقابر. انسَ رعبا يحوط سكينتنا بالرماد وسياج النار. دع عنك الحرقة والخوف وجهنم التي أخبرونا عنها في كتب النار والغيب. دع عنك كل خرائط

الأكفان، وما شيدوه حولنا من خراب. دع عنك الحروب وإرهاب الذل وموت الصدفة. دع حبيبي كل ما يلون خوفك بالسواد وغيمة الموت. دع عنك كل شطط الدنيا، ونساء الحاضر والماضي، وانتبه لي فقط، ما زلتُ هنا، بالقرب من أنفاسك، قل لي فقط ماذا ترى؟ غنّ لي أناشيد الطفولة التي أحرقوها في قلوبنا، والمطر الهارب، والشمس حينما تخرج من كتلة الغيم. غن لي كل ما توسدناه معا، في ليالي الشتاء من أناشيد الفرح. اغرس فيّ كل مدن الشرق المشتهاة ولا تنس مدينتي الأولى. البرد يقتلني، فدثرني بحرير الشام. وضع في فمي حليب المدن القتيلة، أسكن في كفي ألوان أصفهان، وفي قلبي حرقة إشبيليا بلا ندم عما كان، وفي عيني رعشة سمرقند، وفي جسدي رعشة عمان، وامنحني عينيك فقط، لأرى تاريخ أجدادي البربر ومنحدرات المدن واللغات السليبة، لأموت في استراحة العاشقة. حمّمني على ضفاف بردى وحنين نهر الأردن، ودجلة والفرات التي نام بها رماد الحلاج. لملمني في قماط أريحا كي أكبر بسرعة، وقماش بغداد وملمس الحرير، وعطور صنعاء، وآذان مكة ورعشة مدن النور في سحر دبي.

دع عنك القبيلة والقتيلة والرهينة، وضمني إليك قبل أن تعصف بي رياح النهايات. أنبتني في خريف مسقط لأصبح حديقة. كم أنا وحيدة يا قلبي. وكم جسدي غريب في تيه

المدن العربية. سيأتي زمن نخافه اليوم لأننا نشرب حليبه كما اللعنة، ستصبح بلداننا أطرافا ممزقة بحد السكين. هنا بلاد كنا نعرف كل خرائطها، حالت مساحاتها وأصبحت عددا من البلدان. سأحتاج إلى أربعة جوازات لأدخل البلد الواحد.

كيف سيكون الآتون، وكيف سنكون؟

رائحة الموت في كل شيء. الرماد في بيتي وحتى في لغتي، لكني هنا مندسة بين الحيرة وشرودك. لا تدعها تسرقني منك حينما تنام، أو تغفو، أو تغفل عني قليلا.

لستُ امرأة من حجر وخشب ثقيل. سريعة العطب أنا يا قلبي، يمكن لريح صغيرة أن ترميني وراء محيطات سنقضي عمرا آخر لا نملكه اليوم، نبحث عن بعض بلا هوادة. كما آدم عندما صرخ العمر طويلا بحثا عن حواء. لماذا عذبه الله عن جرم ارتكبه الشيطان. لما طوحت به الأيادي بعيدا، وأسكنوا حواء رمل الربع الخالي. ما الحكمة وراء عذاب دام طويلا. ما سحر وجود بدأ بالمنافي وانتهى بموت الغريب.

ارفع راسك قليلا، وانتبه لي، ولا تدعهم يركبون أحصنة الموت ويحولونني إلى نثار كان هنا ولم يعد. ومع بعض الحظ إلى غنيمة حرب، أو غنيمة ليلة للأمير المنتصر، وما يليها أصبح ملكا لمن يخادعني أكثر.

فكر فقط في الطفولة التي سرقتنا، وطوحت بنا في دوار التيه الجميل؟ تتحسس قطرات المطر الذي أغرقنا في التجلي، فربما غدا لن يكون، وإذا كان، سيكون رمادا وسرابا من وهم جميل؟ أيها المجنون تحسّس مثلي بقايا شمعة لم نعرف كيف انتهت في الليلة الماضية؟

أيقظ لغة تعبت، لم تعد تمنحنا ما نشتهي ويستعصي جنوننا عليها؟

دع حبيبي عنك كل شيء، كل شيء بلا استثناء، وذكّرني فقط، في كل ثانية مثل طفلة لا تشبه سنها وعمرها الرخو، أن لي رجلا أحبه ويخاف عليّ حتى من خوفي. ولي ظل يأتمر بقلبي، يسحبني في كل غفوة نحوه لأسلك معه سرا معابر النور الخفية.

دعني اللحظة أغرقك في ألواني لأغوي أحزانك بالذهاب معي حتى ولو نحو جحيم لا نعرف مخابئه، وألبسك كل ما سكن فيّ من دوار، يتسع كما دوائر الماء في بركة ساكنة، كلما صعدنا أكثر نحو معارج الروح الزكية. قل لي فقط، ذكّرني أنك هنا، وإني متخفية فيك، ولا تدعهم يطفئون قلبي لأحترق أبدا بلا خوف ولا ذعر ولا خيبة. لا تمنحهم نظراتك الهاربة، لأنهم لن يفكوا شفرتها، ولن يصنعوا لها أبجدية.

ألبسني ملامحك المشتهاة وسر بي نحو أبوابك ونوافذك ورؤاك، أو أنى شئتَ، لكن لا تدعهم ينتصرون.

ما قتلوك يا هبلي المقاوم الضغينة والظلم، ولا صلبوك فجرا لكي يزينوا بك مدخل المدينة. هم يريدونك جثة ليستريحوا. انا أريدك كما أتى بك الله أول مرة، حفنة من نور وشعلة من حلم قديم. لن أكون مريم التي تمزق قلبها عند قدمي القاتل، وعلى مرأى الجيش، وجثتك التي استعاد الله روحها قبل أن يجف دمها. سأنبت اللغة على رأس لساني وأكتب تاريخا سيقرؤه الآتون، أننا عشنا زمنا استبيحت في الملائكة، وهلك فيه الأنبياء. لن أكون مريم التي تتألم في خشوع، فلا صلاة تجوز وأنت على خشب الصلب وحيدا، وتنظر ببقايا العين الأخرى، إلى المغارة، في انتظار أن يبعثك الله حيا من جديد.

28 - امنحلي كلّك، سأكفّ عن نسيانك

آخذ وجهك بين كفيّ وأنظر إلى سكينة عينيك. أول ما أرى حقول اللوز، ونوار الشجر العابق بالسحر.

أتوغل أكثر في ألوانك وظلالك، وخطوط وجهك، أكاد أشهق، كم سرقت منك الدنيا ومنحتك تجاعيد الأسد. شيء واحد لم يلمسه الزمن بقهره، ابتسامتك، وجنونا يستعصي على الوقت.

أخاف عليك من يقيني الذي ينافس الوهم. تنتابني رعشة الذاكرة المرة، والخوف الدائم من انطفاء النور، في دوار الحنين.

آخذ وجهك بين كفي وأخترق ملامحك الساكنة، أهذا أنت أم بقايا ظلك؟

أراك أنا التي لم تتوقف في منتصف طريق يسحبني دوما نحو التيه، أو على حافة ميناء قديم لم يعد يذكره أحد سوى العاشقين، أو أرض مهاجرة حيث لا تعلم بما ستصطدم. أتعبتني المطارات من الركض، والطائرات والقطارات العابرة للجبال المعلقة في فراغات السماء. أتعبني قلبي، إذ لا يسمع لي، يتمزق في كل صفير أو تيه جديد. قلبي الذي يخذلني في كل مرة وكأن شيئا لم يكن. كم من مرة نصحته بأن يصمت

أو يتوارى، لكنه سيد نفسه آخذ وجهك بين يدي وأغوص في نصف قرن مضى. ماذا أرى. نفس الطفل الذي يخجل من حماقة صغيرة ولا يأبه لخراب. نفس الرجل الذي لا يقبل الهزيمة. يراهن دوما على جنون يتخيل أنه ممكن. نفس الحمم التي ترتطم برماد نجوم هاربة نحو مصير مجهول.

أراك تلعب مع الحمام. تمد لي فتات الخبز وترميني بينهم وأنت تقهقه. كلما حاولت الخروج بين حمام يغطيني، تضاعف أكثر حتى لم يعد يظهر مني شيء. تتسلل بينه، بخطوات ملائكة العشق، ودلال المسحور الواثق من نفسه، ثم تغمض عيني بكفيك، وتمتم في أذني: أنا لست أنا. قولي اسما آخر غير اسمي، وأحرر عينيك من كفي. نضحك بفرح الشوق، ونظن كما الأطفال، أن كل الدنيا لنا. وكل الأفراح ملك عاشقين عرفا كيف يسرقان الشمس والقمر بلمسة مشتركة.

يكبر الحمام في كفي، ويطير طويلا برفقة عمر مضى ولم نمض.

الخوف حبيبي ليس هواية وليس خيارا حيا.

امنحني قطعة واحدة من هبلك، وقل لي كيف صنعته، لأكبر فيك بلا ملل، ولن أطالبك بأي شيء مما مضى. اختلفنا كثيرا وأصبنا أحيانا، لكن الحياة ظلت وجهتنا. منك بعض فرح مسروق، ومني بعض ما تعلمته من نساء الحي البذيئات،

لكي أقاوم رمادا أصبح يلبسني، وأرمم جسدا لا أريده أن يخدعني مبكرا، ويتركني معلقة في زاوية لا أنتظر سوى موت يفاجئني، فأنا لم أخلق لهذا حبيبي.

أيها الغائب في كفن الروح، قل لي ماذا أفعل وكيف أركض بلا نعل على سنن الصخر وصلب الحجر؟ ذكّر قلبي قليلا بأنك مازلتَ تخاف عليه من صمت السكتة. امنحه ثقة قليلة، وذكره بأن الحياة ما تزال ممكنة؟ قل له بعض ما لم تقله لغيره، ولا حتى لي. ابتدع له لغة لا تركب إلا عليه. شق له طريقا لم يسلكه أحد غيره. ارفعه نحو سماء لا وجه فيها غير وجهه. أدخله في سرير الشوق، وامنحه أبهى ربيع. امسح حرير العينين بملمسك. سلمه يقين الفرح، وانسحب قليلا لكي أرى وجهك جيدا تحت الضوء المتسرب من عينيك.

أصبت بك قبل زمن ضاع في دروب الحنين. ضاقت بي سبل الوصول إليك حبيبي، وزادت ظلمة القلب والقبر اقترب. لا شمس في الكف والعينين إلا طيور تحط ثم تطير، نحو سماء مغلقة؟ لا مطر يهزني في هذا الغياب، لا هزة توقظ موتي، لا ذاكرة ولا اشتهاء. ألم يكن من الأجدى حبيبي أن تتركني في غفوة الموت، أو تمنحني بعض الوقت لكيلا أفقد أي تفصيل من فرحك، وحتى من حزنك. أقسى جريمة أن تعود نحو قبر تعرف تربته الباردة جيدا، وأنت لا تعرف هل كنتَ في

غفوة حلم أم عشت بعض حياة هاربة؟ أبحث عنك في كل مسالكي المبهمة، وبيوتي المظلمة التي أفتحها للمرة الأولى، في عينيك إذ ينتابهما ارتباك العاشق للأرض وأبراج السماء، علّي أعثر على ظلك، أو بعض أنفاسك التي كانت هنا قبل قليل، لحظة واحدة قبل أن ترمينا رياح الخوف كل في منفاه.

امنحني أي شيء يذكرني أني لم أكن أحلم، وأن قلبي كان بين يديك، وأن جسدي كان حطاما قبل أن يسلك دربه نورك، وهمسك، وبهاك.

كان المعصية الكبرى وتاريخ الخطايا، وديوان الحزن والرزايا، جسدي.

جسدي أنا، ليس أبي ولا أمي، ليس جدي ولا اتساع القبيلة.

جسدي ملكي، ألمي وحنيني، منفاي وشوقي. فلماذا يغضبون كلما سكنت وجهك وسر عينيك، ويُخرِجون مدافن النار ليحرقوا سحر اللحظة؟ ألم تدرك بعد كل هذا؟ كم أشتهي اللحظة أن أموت في كفيك عصفورة، أغمض جسدي، وأضع جناحي على عيني المتعبتين، حيث أراك ولا أراك. أرهن القلب والحواس كلها مقابل أن أسند وجهي على خديك، وأسألك مثل طفلة مشاغبة: كيفك حبيبي؟ كيف قلبك الذي خدعتَه ألف مرة، ونسيتَه حتى كاد يهرب منك، لولا

حبك لي، وربما لامرأة أخرى فيّ؟

أمازلتُ على رؤوس أصابعك ولسانك أيها الطفل الطائر في مزالق العواصف وسحر المطر؟ أرأيتَ ماذا يفعل فينا الغياب؟ كيف يسرق عقلي ويمنحني تيها لم أعد قادرة على حمله وحدي.

امنحني حبيبي لغة المشتهي، وحسّسني أني يتيمتك الوحيدة.

امنحني مستحيلك وأمنحك جنة اللون الذي لم تر.

امنحني بحرك وأعطك موجي.

امنحني نورك وأغرقك في همسي.

امنحني قلبك وسأكفّ عن نسيانك .

29 - الطير المتخفي في ظلي

قلتَ لي في ذاك المساء المعطر بانتشائك: ارقصي حبيبتي، فلا تتوقفي حتى عندما ينهار الجسد، فلا أجمل من امرأة ترقص حتى يسرقها الدوار بعيدا، نحو أعالي الأنجم والسماوات. عندما تستيقظ في غيمتها، لا ترى أحدا سوى حلم انتابها، فقادها نحو الأقاصي. سوى ظلال روح انفصلت عن جسد كان يثقلها، فتماهت كالريشة الخفيفة مع عطر الفصول وغيمة المساءات الهاربة نحو الغروب.

فسّر لي أيها الطير المتخفّي في ظلي، لماذا جئتَ مني، وعدتَ تبحث عنّي بعد أن اختفيت دهرا؟ أنسيتَ ما كان، وكل ما يمكن أن يكون؟ ألستُ حبيبتك التي تلاشت في دمك؟ وامتزجت بألوانك؟ ألستُ امرأتك التي قلتَ عنها هي بدايتك ومنتهاك؟ تخليت عن كل أحلامي فقط لأكونك.

كل المسالك في وجهك اندثرت، وكل الطرق نحوي لم أعد ألمسها. إلى اليوم لا أعلمُ لماذا كلما حزنتُ، تأكدتُ أني موجودة، وأن حياتي ليست قدرا بلا معنى؟

لماذا أيها الطير الحرّ ينتابني خوفي كلما رأيتُ التيه مرتسما في ملامحك الصغيرة؟ يُفترض أنّكَ كبرتَ وأن انفصالك عنّي لم

يكن لعبة. أعرف ضعفي كما تعرف أنت كل خطوط السماء وتحولات الأرض من الأعالي. أعلم أنه ليس سرا، وأني أبكي كثيرا كلما انتابتني غيوم اليأس التي لا تنجب مطرا، ولا غيما، ولا ريحا حتى بلون الخريف أو برد الشتاء، ولا حتى بقايا فرح معتق متخف في عمق الروح. كيف عدتَ اليوم نحوي ونسيتَ أني بكيت كثيرا غيابك وأني أيضا أشعر بالفقدان المرّ كلما خطف الغياب من أشتهي وأحب. هل هو ظلك الذي هناك أيها الطير الهارب من مطر يسكنه، من عش فيه ولا يراه؟ هل أنتَ الذي أرى، أم أنا التي لم تعد أنا. المرأة التي تبحث عنها ماتت منذ أن تخطيتَ عتبة المسافر. المرأة التي كنتَ تعرف تكاد ألا تراك إلا بما تبقى في قلبها من حنين. عزلتك تأتي بك نحوي. الأبواب القديمة أصبحت موصدة ومفاتيحها خطفتها النسور التي كانت تهددك كلما نزلت نحو شجر الغاب تقتات من الورق والشمس والظلال وتعود محملا بأشعة سرقتها من البرد لتضعها في عيني وكفّي. لا ألومك ولكني ألوم نظام الأشياء.

لو كنتَ فقط في القلب لأدركت كم أنت ثمين على روحي، وكم إن وجهي لا يرسم إلا داخلك المتخفي فيّ. نختفي دوما فيمن نحبُّ لكيلا تلمسنا ريح الذين يريدون شرورا بنا. من لا يشبههم عدوهم، وأنت لا تشبه غيري. أنت فيّ، لستَ

ظلي، لكنك امتدادي، بعض روحي التي تستريح قليلا مني. ترى النور الذي يغمر الشجر والشوارع وقوارب البحر المتعبة، وعندما تتعب تعود نحوي محملة بي، لتسكنني. مازلت هنا ولم أبرح ساحتي أبدا، امرأة من خيط النور، وتقوى الروح ودوار الحواس. أحسب الثواني وأعدّ الدقائق وأتلمس الفصول المترامية على امتداد سنة متكررة، أراك ولا أراك، لكنك الشعلة النادرة لأني كنتُ كلما احتجتك وجدتك، وكلما تعبتْ روحي واجهتَني ونطقتَ بالكلام السرّي الذي يعينني على استقامتي وفرحي ورقصي ومطري. كل شيء بما في ذلك طير الغواية، فأصبحت خوفا، أخافه وأهرب منه. لا تلمني أيها الطير اليتيم، فأنا مثلك، أبحث عن ظل أستكين له يعرف أن لا سرّ إلا قلبا سخيا يخفي حرارة بركانه فيه.

ألم تقل لي يا جنونا استسلمت لهبله: ارقصي بلا خوف ولا جزع، فكلما التفتِّ نحو حرائقهم، سُرِقت بعض روحك، وغرقت في رماد لا يليق بقلبك. ارقصي وارمي بك نحوي، فلا أجمل ولا أبهى من امرأة ينتهي بها سكر اللحظة، بين ذراعي رجل تعشقه.

30 - هل تراني إذ اراك؟

هل يكفي عربي لتراني؟

هل ترى وجهي؟ هل تراني إذ أراك؟ حتى لباسي الأحمر الذي كنت تغلق أزراره قبل أن نخرج، نسيتَه. ملامحي علاها صدأ النسيان وأنا في عز الشوق إلى قلبك وملامحك المنطفئة. الآن أنا لا أشبه إلا نفسي ولا خوف في قلبي إلا من موت لن يمنحني فرصة أن أقول لك كم كنتُ أحبك. متعبة حبيبي مثل عاصفة دارت في الفراغ ثم اصطدمت بنفسها قبل أن تموت في صمت. كل شيء يهرب من كفي. كلما حاولت أن أضع الغيمة الهاربة في قلبي انسحبت مني أو تلاشت بين أناملي. كيف لي أن أراك يا قلبي، وأنت تغيب مثل فجر يطلّ، وقبل أن أفتح عيني، لأسرق بعض ضوئه، يهرب مني؟ ألست لي منذ أن عمدنا البحر بملحه ولونه؟ هذا الوجه الذي تسحبه بحرقة اليتيم لي، ولي أيضا كل ما هربته من ظلمة الخوف. هذه الملامح المنداة بعطر الغياب أعرفها، ما تزال مغطاة بتربة المسافات. خطواتك التي نحتتها المسافات لي، فلا تتعب نفسك يا هبلي بإقناعي، فأنا أعرفك أكثر منك ومن الريح ومن الصدف البحري الذي يحفظ أغاني الريح وتكسر الموج وعواصف السواحل. هل لي أن أقول لك عن بعض

سري؟ أنهكني الركض وأنت في دوخة لا ترسو على موجة، أو نجمة أو حافة. لو كانت المسافات تحكي لاستسلمت، وقالت، تعبت من ركضه وهو يتمادى في اشتعاله. قطع البحر بلا أفق، والتربة والتاريخ وجغرافيا هشة، كل يوم تُجترح قليلا. سلك دروب أديان بلا عدد، تسحب وراءها الخوف وحوافر الخيل، وصرخات الناس، وأصداء الأبواب الثقيلة. لو كانت الروائح تحكي لقالت إن عطره من ليمون إشبيليا وخوف غرناطة، وحرائق طليطلة، وعرق ألميريا. لو كانت الشمس تحكي لقالت إنه منح النظر للعميان والخفقان لقلوب ميتة، النور لتاريخ أعمى، بلا قلب ولا أرض ثابتة. لو كانت الرياح تتكلم لقالت إن المسلك القاسي كان واديا عبره واضعا يده على قلبه خوفا ألا يصل إلى مشتهاه. دليله الأوحد قصص قديمة وثقة مستكينة في القلب. لو كانت هذه الجبال تعرف كيف تروي لقالت إنها رأت رجلا يعبر المسالك الوعرة ويذهب نحو أدغال الموت بلا تردد وهو سيد القائلين أن لا حرب تستحق روح إنسان. يسقط ويقوم، ينظر نحو سماء بلا سقف ولا لون، يسقط ثانية ثم ينشب أظافره في التربة والنبات الجارح، والشجر القاتل، لكيلا يقال عنه إنه خسر حربه قبل خوضها. لو كان لهذه الخروبة ولتلك النار لغة، لقالت جاء بي من هناك رجل اختلطت عليه الأسماء والأديان. ركض في

برية الموت ومضى بلا التفاتة يركض نحو شمس ظنها تدفئه وتحميه. لم أكن إلا ميراثه الصغير. كل يوم كان يغير تربة قلبه لكيلا تأكله أملاح العزلة والبحر والمنافي. قبل يمد ذراعه عميقا نحو الله ويصرخ بلا نهاية ويعوي مثل ذئب وحيد. لو كان بمقدوري أنا حفيده الوفي لقلبه أن أروي قصته لما ترددت ولكني أعبر نفس التيه في زمن لم يتغير كثيرا وجغرافيا أصبحت أصغر من قبيلة وأضيق من عرق وأبأس من طائفة. سيحزن جدي لو عرف أن التاريخ الذي أسكنه قلبه قبل أن يرحل خرج منا ليموت وحيدا في صحراء الربع الخالي. وأن الجغرافيا التي اقتطعت له أرضا يكبر فيها من أتى بعده سدت أبوابها وأسرتها واكتفت بالتأسف على زمن مضى. لو.... لكن ماذا لو نامت لو قليلا ودعتني أكبر في الفراغ وأموت في التيه. ماذا لو انسحبت لو من مشهد الحياة وتركتني أرى مشهد الحرائق التي تنتظرني في زاوية العبور. ماذا لو قبلت أن ترافقني وسرنا معا نحو خوف لم نصنعه ينام فينا منذ قرون. ماذا لو كان كل ما بيننا مجرد حكاية. يسميها البعض التاريخ. آخرون الخيبة. وأنا التيه.

ماذا لو قبلتَ أن تمسّ قلبي برأس أصابعك، وتتذكر أني ما زلت هنا على حافة قلبك.

لا شـــيء ســـوى حـلـمـي الـــذي أرفـــض أن يمـوت. أريده أن يبقى لي.

ربما لأني أدمنك حتى في غيابك، قمت اليوم على غير عادتي. في وجهي بعض الصفاء، وكحلي انساب قليلا ليكسو ملامحي، ويمحو دمعات الليلة الماضية. لا أعرفني، وكلما حاولت زاد غموضي فيك. أنا امرأة السكينة، أحفظ كل عواصفي في داخلي لكيلا أقتل من أحب. أعرف سلفا أن في قيامها ساعتي وساعتك. تسحب في أثرها كل مخلفات القلب المتعب. لا تسألني حبيبي كم من مرّة أخطأت في حقك. ذنوب الغفوة بعدد الرمل ونجوم السماء. كان يمكن ألا أخطئ أبدا لو أن القلب انتظر قليلا. لو أن اللحظة أسعفت هبلي عليك، ومنحتني عقلا يفكر بعض الشيء. كم من مرة أخطأت في حقك يا قلبي؟ كلما فتحنا فصل الأخطاء تقلص فصل الجحيم، وزاد يقيني بأن حبا مجنونا تسرقه اللغة والشمس والمطر وموسيقى الفرح، لا يسلّم حقه بسهولة لأقدار الموت. أخطأت في حقك حبيبي حيث كان يجب أن أكون أنا. أخطأت يوم قلت لك بفرح الطفولة، أحبك، وكانت الكلمة أصغر من حرائق القلب. أخطأت يوم نظرت في عينيك طويلا وهمست: أشتاقك ونسيت أنك كنتَ

بيتي. ويوم مشيت طويلا بحزن وتركتك على حافة الطريق وحينما التفت ورائي، أدركت أنك كنتَ ظلي. أخطأت في حقك يوم سافرتُ نحو منفاي، وبقيتَ في المطار وحيدا، قلت لك وأنا أعانقك طويلا، سأفكر فيك كثيرا حبيبي، ونسيت أن أفصح لك أني تركتُني فيك. ومرة عندما لمست خطوط وجهك وقلتُ لك من أي إله يوناني سرقت القامة والنبل؟ ونسيت أن أقول لك أنك كنتَ كلّي. ومرة أخرى، عندما أخذت يدك وقبلتها وأنا أهمس لقلبك، طوبى لهذه اليد التي منحتني الحياة، ونسيت أن أنحني بكل بساطة كما يفعل الهنود، وأقبل لباسك والقدم التي جاءت بك نحوي. كم من مرة أخطأت في حقك؟ قلبي يقول أكثر مما أعلن. آخر مرة يوم رأينا مغيبا أسر كل الحواس فينا، وقلت لك ما أبهى الشمس إذ تستسلم أخيرا لبحر يتحول إلى سرير لنومها، وسهوت عن أن أقول لك أنت البحر كله. ثم مرة أخرى تذكرتها اللحظة أقولها كي لا تموت. كنا في أرض اليباب. هل تعرفها الأرض اليباب حبيبي. أرض عربية تحترق بنار ذويها، رأيتَ طفلا جائعا يبكي. يمدّ يديه في الهواء، قلت لي كان يمكن أن أكون أنا من يحتل هذا المكان لولا صدفة الأقدار. ضممتَه طويلا حتى استفاق من خوفه، ومنحتَه ما يفرحه،

صدرا من نور وقلبا من خير. كنت غبية يومها إذ قلت لك شكرا حبيبي على طيبة روحك، وكان يفترض أن أصمت وأكتفي بأن أسمع قلبك. أعرف أن للملامح أسرارها، لكن قلبك سرّي.

ونبضه يسير بي نحوك كلما حاولتُ أن أنساك.

31 - أحببتَ أم لم تحب، فأنت لي مرّتين

من يكشف السر الذي ينام في وجهي منذ أزَلٍ وليلة؟ كلهم يرونني باللون الذي يشتهون، أنا سيدة الهروب والنوم في ظل روحي. كان هذا الأزرق لون قلبي، والأخضر صديق عيني، والبرتقالي ذوقي. من حوّلني إلى رماد ورماني في الفراغ، لكني خيبت ظنه إذ دعوت الألوان ليلة ميلادي، لتسكنني فيها وتعبث بي في خلوتها كما نشتهي جميعا؟ أبوابي وملامحي، ونوافذي ليست مغلقة. يحدث معي أنا أيضا، في عزلة القهر المتمادي، أن أفكر بلا هدف ولا سؤال، في منقذ يمسح عن قلبي ثقل الأيام وخيبة أصبحت رفيق الدوام. كلما مددت يدي نحو شي، جاءني صداه ليذكرني بأنه ليس لي. أشتهي أحيانا أن أعرف فقط ما الذي لي حتى أختزل عذاب يدي وأنسى أن الدنيا لم تولد لي أو لم أولد لها، وأكتفي بجحيمي؟ لم أطلب سماء أركض فيها بلا ملل، وأسكنها، سلطانة الألوان والتمادي. سيدة المطر والرياح. ألجم قوس قزح متى شئت وأسرح ألوانه متى رضيت. لم أطلب بحرا أحوله إلى سريري لحظة تنفرني الأوقات والحياة. وأرمي موجه في جيبي متى طغى، وأسرق لونه لأضعه في كل بيتي وحيطاني. ولم أطلب أبدا عاصفة أعطيها أمرا **بأصبعي** بإصبعي لكي تقتل المدينة

التي خانتني. مثل صبية القرى الفقيرة، أنا، فقط. طلبت فراشة أصغر من حجم الكفّ، تمنحني جناحيها فقط لكي أطير نحوك. تعيد نبضي من جديد لكيلا يموت فيك، ويستمر قلبي رفيقك حتى وأنت في سماوات منافي الخوف والقلق. في عزلة الغياب، لم تبق لي إلا هي، يخونون جميعا وتظل وفيّة. يخرجون جميعا، وتبقى في داخلي. يهربون جميعا، ولا تنقل خيامها وأفراحها وأحزانها بعيدا عني. ترابط فيّ كما الشهوة الحارقة في جسدي. هي منقذتي. لغتي صمتي وكلامي. كلما تربص بي الموت، جاءت اللغة وأزاحته من مكان ليس له. موت يراقبني وحنين يرميني فيك ولغة تحميني من الكلّ. كلما اشتد شوقي إليك، وضاقت الحواس كلها، وخانني كل يقين في الحياة، بحثت عنك في لغة تشبهك وتشبهني. هي من يمنحني فرصة العثور عليك، حتى ولو اندفنت في أبعد مكان، وسرقتك أفراح النساء، وهزات المطر، وأسرار المدن الخفية. أنا امرأة لا تسلم في قدر صنعته بيديها. أتساءل أحيانا هل ستسعفني أقداري وترميني بين ذراعيك، أم أنها ستظل مقفلة في وجهي وترمي مفاتيح أبواب البحر في البحر؟ أنت هكذا دائما حبيبي، تمنح الشيء ونقيضه. تمنحني الحياة مع نسمة الموت. الحب مع الانتظار. الخوف مع الفرح. الهرب مع الإقامة الجبرية بين فراغات النجوم وانتظار اللحظة التي تأتي

راكضة كلما سمعت أنيني الذي لا يتوقف منذ أن سافرت للمرة الأخيرة إلى فلوات لا أعرفها اليوم. لكنك أنت لي أيضا على مرتين. مرة يوم حلمت برجل يشبهك، ومرة يوم رأيتك. لي في هذه الدنيا فرحتان. فرحة الوجود معك، وفرحة الاستمرار بك. لي حيرتان، حيرة الخوف عليك وحيرة السفر فيك. لي حزنان، حزن افتقادك يوما، وحزن أن **تنسي** تنسى أني لك. لي سفران، السفر نحوك بلا خوف، والعودة منك لأسكنك. لي دهشتان. دهشة اكتشافك في قلبي، ودهشة الشمس التي تغطّيك.

لي سؤالان، سؤال القلب المتعب وسؤال ذاكرة تخون. لي أنت مرتين. والثالثة شراكة بين قلبين لا اسم لها إلا الحياة.

أما زلت فيك، بعد غياب السنين؟

أما زلتَ حبيبي ظل كلي، وكل ظلي؟

ذلك الطير في بياض الروح، حقيقة أو غيمة في كفّ الله؟ أهو أنا؟ أم شيء ينبتُ فيّ، أم كليّ المباح؟

ذلك الطير الذي يقوم من كفن كم يشبهني في منفاه. لا نصنع مآسينا لكنها تصنعنا. وأنت حبيبي، ما زلتَ صغيرا لا تعرف شطط المنافي. سألتَني يَوماً وأنا أستقبلك لأودعك من جديد. سألتني وأنت تضحك وتخبئ رأسك بين يديك: ما

رأيك لو أبقى هناك، بعيداً، بعيداً عن هذا الموت اليومي؟ لا أدري إذ كنتَ تعني ما تقوله، ولكنّي صدقتُ أن الفكرة اختمرت في ذهنك. لم أتردّد في الجواب. قلتُ لك. سافر حبيبي. إذا كنتَ حقاً تحبّني سافر، ولا تَعُدْ. لا بطولة مع الموت. أفضّل أن أراك واقفاً وبعيداً، على ألا أراك أبداً. قلتَ، لست مهيئاً لهذا المنفى. قلتٌ لك، سيكون عزائي الوحيد، أنك حي، وأنك هناك، بعيد عن المخاطر المفاجئة. يعزّ عليّ كثيراً أن أصادفك وأنت تسير في الشوارع، تلتفت وراءك في كلّ مرّة خوفاً من يد غادرة. يعزّ عليّ أن تختبئ داخل الظلمة، وأنت ممتلئ بالنور والحياة. يعزّ عليّ أن تموت في اليوم ألف مرّة، وأموت أنا معك مليون مرّة. يعزّ عليّ أن تكون معي وأنت لستَ لي. اِرْحَلْ حبيبي، وسأنتَظرك عمرا بحجم جنوني عليك. حسّسني فقط أنك هنا، تونو ترنو إلي بعين يسرقها الخوف، عُدْ وأنْت تحمل لي كعادتكَ، باقة وردٍ فقط. الخوف ليس قدرا محتوما عليك وأنا أعرفك لا تحمل في قلبك إلاّ ما يوقظ فيك الحياة، وكتباً ملوّنة بالكلمات وقصص الحب. لا تقبل أبدا بموت يتربص بقلبك، كل كتب الدنيا لا تساوي نبضا واحدا منك. أنت عودتني على مقاومة أقدار لا نصنعها نحن، فكيف أراك الآن تتهاوى كالحائط القديم

وتركض نحو التلاشي كالسديم. سافرْ حبيبي، ودعني أعيشك ممتلئاً بالنور، حتى ولو كنتَ هنا. لستُ مستعدّة لفقدانك بعد أن وضعني الله بين يديك وحمّلك بي. كن سعيداً في غيابك، وتذكّرني فقط كلما انتابك الحنين لأرض أصبحت قاتلة. تلك الأرض لنا أيضا. تتساءل في تيه المنافي: من كان يقول؟ كم تبدو الحياة اليوم لعبة قاتلة. سخرية كاملة. في النهاية، فعلتَ ما اشتهيتَ، فأورثتني جرحا لن يجف إلا في القبر. بقيتَ أنت في تربة الموت، وأنا رحّلتني في آخر طائرة كان مسموحا لها أن تطير، نحو مناف كانت معدة لك وليس لي. وأنت تقبل دمعي، همستَ في أذني: سافري وسأركض نحوك. رحلتُ، لكنك لم تأت. مر ربيع ولم تأت. مر مطرنا ولم تأتِ. هبّت كل عواصف الشمال والجنوب، ولم تأتِ. صمت الرصاص وأغلقت القبور، ولم تأت. قلت لي قبل سنوات خلت، ونحن على حافة بحر نام قبل أن ينام حمام الموانئ، إن الأرض غطائي ومائي وعطشي، فكيف أتنصل م من تربة تنام في دمي. امنحيني أي قدر لكي أنسى كل شيء وأهرب من قيامة أنا أول من يعرف أنه لا معنى لها.

الليلة لن أزعج صمتك حبيبي. سأمرّ مثل خيط النور من الشارع الخلفي الذي لا ضوء فيه، وأضع باقة الحياة التي

منحتها لي في المطار، آخر مرة، على قبرك الحزين، وأمضي.

لن أسألك عن جرحي، أقبل فقط صمتك وتربتك ووردة قلبك، ثم أعود نحو منافيك التي سبقك الموت إليها.

ماذا أفعل؟ لقد أخفقت في تركك.

امنعني منك كي أنساك وأرى الحياة بوجه آخر.

32 - ماذا تساوي مدينة أنتَ لستَ فيها؟

هل تذكر حبيبي ماذا قلتَ لي ونحن نعبر مدينتك التي سحرتك، في ليلة لا نتذكر فيها إلا عطر مطرها، وأضواءها المشتعلة، وشوارعها القلقة، التي كانت تعج بالعشاق؟ قلتَ: باريس عروس المدن الهاربة. لكن ماذا تساوي أجمل مدينة في الدنيا أنتِ لستِ فيها؟ أنا هكذا، كلما غيبتك المدن، غيّبتها. تعرف أنا مثلك يا قلبي، أبجدية مستعصية. خذني كما تريدني وتلمسني، بعيوبي وأخطائي وخوفي عليك. وهل تذكر تلك الليلة في مدينتنا التي لم نعد نفهم سرها، عندما شعرنا فجاة أننا كنّا وحيدين في عزلة الخوف؟ في نهاية كل شارع قصة لا تنتهي للموت. قلتَ لي: لماذا نحوّل الدنيا إلى قيامة. ما يزال بين أيدينا متسع الحياة، مسافته شبر أو يوم، لماذا ا نسكنه؟ فأشعلنا أجمل شمعة ملونة كانت عندنا في البيت، وتحدثنا طويلاً وكأننا نكتشف بعضنا البعض للمرّة الأولى. في تلك الليلة توقفت عقارب الساعة عند الأناشيد التي كانت تزف البلاد للمبهم. وحولنا الجحيم إلى لحظة فرح. يكفيني اليوم حبيبي أن أدرك أنك ما زلتَ هناك ليزداد ارتعاشي والتصاقي بوهمك وظلِّك، فالتفت نحو ذاكرتي المنكسرة. جنازتي. أو إلى قصاصة من قصاصاتك، أو إهداءٍ من إهداءاتك على

صفحة كتاب ممتلئ بالفرح والحب، أسترجع من خلالها أملي في بعض الحياة. أمشي في شوارع هذه لمدينة المدينة الواسعة التي كنّا نزورها في العطل كلما كان ذلك ممكناً. لا لشيء إلاّ لأذكرك وأتلذذ بهذه الذاكرة المنكسرة التي صار كلّ ما فيها ماءً يصعب لمسه، ولأُشعِر نفسي أنّي ما زلت قريبة منك. يكفيني أن أتذكرك لأجد نفسي ضائعة داخل شوارع وممرات هذه المدينة المذهلة ونحن نمشي، نمشي بلا هدف ولا هداية. كم بقي لنا من الحياة لنضيّعه؟ كثير من الحبّ وقليل من الجنون لا يؤذيان أحداً. أنت علمتني هذا، وعلمتني إدمان هذه المدينة بنهم كبير حتى في غيابك. ها أنا ذي اليوم، مرة أخرى، أُدمنها لوحدي. أشعر بالغصة، بالاختناق حزناً. أموت في هذا المنفى الذي لا يصلح إلاّ للشعر والأشواق. إنك تقتلني إذ تنتحر لوحدك هناك وأنتحر لوحدي هنا. لا أدري كيف سيكون مصير هذه الكلمات الهاربة؟ هل ستقرؤها؟ هل ستفعل ذلك وأنت داخل حفرتك أم على متْنِ طائرة مسافرة نحو غياب ما يخفيك عن قلبي لزمن يقصر أو يطول، أسبوعا، شهرا، وربما سنة؟ ثم يعيدك إلى قيامتك التي لا تستطيع العيش بدونها ولا تتسع إلا لك؟ أحبّك. سَأظلّ أنتظرك بشوق وحنوٍ إلى أن تأتي، في كفك حفنة من مطر وعدتني بها. سأعطيك من عمري، عمراً جديداً، بعدها لا

تسألني، يكفيني أنّي تحدثت إلى قلبك قليلاً وتجرّأت على مقاومة بعض هذا الخراب. لا أثمن عندي من أن أراك هنا ولو في حلم هارب. ولا أجمل من أن أمنحك القلب والجسد مرة أخرى. صعب حبيبي أن يضيع وطن في غفلة منك ومنّي. أصعب الأصعب أيضا ألا تملك شبرا من أرض، وحفنة من تراب، وصومعة وكنيسة، ودربا صغيرا، فقط لتدعي أن لك بلادا جميلة.

وأنك ابنها الذي لا يُجارى.

لا أجمل عندي من أن أراك في دمي، في فرحي وحزني. هنا، لا شيء يضاهيك أو يسرقك مني، كما الطير الجائع إلى قلب أمه ومائه.

غبتَ، أم لم تغب، فأنتَ هنا.

مطر يأتي، مطر يذهب. شتاء يمضي وآخر يعود، وأنت هو أنت. لا شيء تغير. برد يسكن الظهر لحظة الرعشة، وخوف يشل الحواس ليحولني إلى جثة. من وضعني على عتبات الخوف وقال لي كوني، فلم أكن؟ من سمّرني على هذا الجمر وضرب على ظهري، وقال عمر طويل وكل عرس وأنت جميلة؟ من دثّرني بالرماد وقال للنار التي فيّ، كوني وردا وسحرا وإكليل فرح؟ من أنبت الحرف في كفّي ثم غسله

بماء الورد، فانمحى فامحى؟ من سحب السماء من علاها، ووضعها تحت قدمي، وعندما مشيت خطوتين كانت زرقتها قد اختفت وحلّ مكانها بياض الكفن؟ لماذا يا هبلي سلّمتني للريح وبعتَ نفسك للتيه، ووقفتَ على هضاب العزلة تتأمل حرائق لم تتوقف حتى اللحظة؟ كيف أكون حيث لا تكون، وكيف تكون حيث أموت؟ كيف أجدني وأنت ممزق بين قارات العواصف وأمطار الرحيل؟ مطر يأتي، مطر يذهب. شتاء يمضي وآخر يعود، وأنت هو أنت، سيد المطر والحنين والشوق الدفين. لماذا كلما استحضرتك في غفوة من الجميع، سبقتني المنافي إليك، والكوابيس المتتالية التي لا أتذكر إلا خوفها. تأتيني اللحظة مسكونة بعطرك يوم سحبتني من يدي وقلتَ تعالي. تركتني أركض وراءك كطفلة مراكبها الريح وسفنها أوراق خطت عليها رسوم الطفولة. لم أقاومك يوما ولم أمنح اللحظة فرحي في غيابك. عندما وصلت قلت لي انتظري قليلا، افتحي عينيك وقولي فقط ماذا ترين بقلبك؟ سرقتني ابتسامتك التي أعرف خطوطها كاملة. قلت أرى عطرا يدخل قلبي ليس ككل العطور. ألمس شيئا يشبه دانتيلا ستائر القصور. أرى كل عصافيرك تتربص بي فرحا. أرى اللحظة كل ما يراه قلبك ولا شيء غيره. عندما فتحت عيني رأيتهما في الظل ولون الخفوت. كاتب ياسين الذي أحرقه النسيان

وأخوه في الحنين. ثم حملتَ حفنة من الألوان من كفّ الرسام الوحيدة، وكسوتني بها، فأصبحتُ قوس قزح. وأنت تغادر معرض امحمد اسياخم، تاركا وراءك صورة الفخار المكسور في عيني أمه، وألوانا تنساب بغير نظام ودمع متحجر، عاد لي حزني كما المرض القديم. فجأة أصبحت وحيدة كجندي مهزوم. لم يكن الرسام مجنونا، كان فقط بطلا لخوف مضمر سرق ذراعه، ومنحه ألوان النار، ولغة الشغب لينشئ معمار الحنين. لم تكن كما اليوم يا هبلي في حرائق الحزن، ولكنك كنتَ شبيها بوردة المنتهى. هل لي أن أقول لك اليوم، بعد كل هذا الزمن الذي مات بين أيدينا، إن المسافات التي سرقتك مني، انتفت علاماتها وأصبحت عودتك مستحيلة، وأن الغيمة التي وعدتني برحيلك نحوي، زلت طريقها فأمطرت في غربة أخرى. هل تدري يا هبلي الصغير ومنفاي، أن يدك التي صنعت لي جنة في اللغة، هي اليد التي دفعت بي خطوة أخرى نحو جحيم أعمى لن أسلم منه إلا لحظة الغفوة، على سرير الموت. لا نور في المقابر يا قلبي إلا عبث الموت وجنون الأقدار وورودا ملقاة على صدر لم تعد به إلا أنفاس التربة والفقدان. عندما تخبرك العصافير وصدفة الرياح بموتي، لا تأتني بالورود، اصمت طويلا أمام قبري، واقرأ عليّ فقط فاتحة الغياب وقل في خاطرك حتى لا تسمعك الكواسر، كنتُ

أحبها، وامض إلى سبيلك، أمام قلبك الهش عواصف أخرى لن تمهلك حياة واحدة لإيقافها.

امض ولا تلتفت للصوت الآتي من بعيد، فهو ليس لي، لكنه لصبية قروية أحبتك حتى انتفت فيك.

امض ولا تلتفت، وأكثر فقط من إدماني، فلا امرأة غيري، تتفقدك في كل نفس بحزن العاشقة.

33 - أغمض عينيّ وأنتفي فيك

هل يمكنك أن تتريث قليلا حبيبي وتنظر في عيني لتدرك الخطر المحدق بك وبي؟

هل يمكن أن تحبني قليلا كما أحبك أكثر؟

السفر بلا رضاي خيانة. انتظر قليلا، لا ترحل الآن، فما يزال بيني وبينك حنين لم يُقلْ بعدُ. كل شيء انسحب في صمت ولم يبق سوى ملامحك وابتسامتك وجرحك الخفي. لا تكن غبيا وتذكر فقط أن الحياة لا تتكرر مرتين. ما تراه في كف يدك اليمنى سراب، اسأل كفك اليسرى، الأقرب إلى رعشة القلب، هي أدرى بما تخفيه خطوط الغيب. لايحييني إلا نبضك السخي وعبورك الخاطف في مرايا الروح. تريث قليلا وأنصت لصمتي، فأنت هنا، حيث لا خوف، ولا رائحة الموت تسكن خلايا الشوق، والحيرة واللغة والحنين. أتنفسك حتى عندما تنتابني شهوة القسوة لنسيانك. أتدرب كل ليلة على فقدانك وتلاشيك في الغيم، وأحاول أن أقنع نفسي بأنك مازلتَ فيّ، تعطي معنى لألمي الخفي. تجعل من حزني بهاء العروس، ومن لهفي، جرحك الطري، الذي لا يلين للعواصف، يميل حيث تميل كي لا ينكسر، ويجعل من غيابك

سفره الدائم نحوك. من شدة هبلي عليك، أكاد أصرخ بيأس العاشقة، أطلقني حبيبي، حررني من قيد حضنك، ساعدني لأفلت منك، واتركني أذهب نحوك هذه المرة بدوني. لم تعد لي القوة الكافية لأشدك أكثر وأمنع ريح الغريبة من أن تتسلل بيننا وتسرقك مني. سيد العارفين أنت يا قلبي، كما تعرفك الأمطار ووجوه المنافي. ممنوعة من السفر فيك طويلا، خوفا من خديعة القلب، ومع ذلك أخطّ العالم في كل لحظة وأزرع النجوم في سماء يابسة، أقتفي بقاياك هنا وهناك، خطوة، ثم خطوة، فأخرى، باحثة عن لحظة من عرق الشمس، ودهشة الريح، هربت مني بلا استئذان. غير آبهة بموت يقتفي خطاي أيضا لينقض عليّ في أول منعرج الخيبة، غير آبهة بسيل الرعود التي تحرقني وتعصف بيقيني، فلن نعيش مرتين يا هبلي الشهي. بيتي أنتَ. يقيني أنتَ. وخوفي أنت أيضا. ارفعني نحو سدة القلب لأكبر بحنينك وجنونك. لا تنوّمني في ظلك، فظلك يمحو كل ملامح روحي وبقايا وجهي. هل تعلم حبيبي كم البحر قاهر وكم المسافات ليست زرقاء؟ هل تعلم كم الجرح الشقي لا لون لدمه، وأن الأحمر أصبح عنوانا لغيابك؟ انتظر قليلا، رمشه عين فقط، فلن أثقل على انتظارك، لا ترحل الآن. أعرف سرّ يتمك الذي يؤذيك، أعرف خفايا خطوط الوجه التي يسرقها كل يوم قليلا، ظل الموت الخفي. تعال فقط

وابك كما تعودت أن تفعل على صدري. ابك فقط، ودعني أشمّ ندى دمعك كلما اشتقت إليك، برد الغربة سكاكين من ثلوج الشمال. ابك حبيبي، فلن تجد امرأة أخرى في سفر الغياب، تضع يدها على قلبك ووجهك وعينيك وتقول لها اسمعي. اسمعي إنه هدير الخوف.

لا تلمني على ما يأسر قلبي، فكلّ ملامحي تقودني إليك.

كل شوارعي تنتهي بين يديك.

كل الغيوم التي على وجهي أنت من لوّنها. كل الحيرة التي تسكنني أنت من أسكنها في عيني ودمي.

كنت ضائعة في شارع بلا اسم عندما سرقني الخبر. أسكتُّ صرختي بكفي كي لا أتبعثر. لماذا تذهب الآن يا قلبي، وأنا ما زلت أبحث عنك منذ سنوات خلت.

ألم تقل لي إن القدر قلم رصاص يُمحى خطه بجرة ألم؟ قلتَ لي أيضا هو يخط وأنا أمحو إلى أن يصاب بملل التكرار ويتركني وشأني. لن أسلمه متعة أن يسرق شأني. حبيبي، كيف أسمي هذا وأي نعت يستقيم؟ ألم تمنحني كل الأمل لأظل معك في بقعة النور؟ ألم تسلمني كل مفاتيح الخير وكلمة السر لنستمر معا؟ لماذا تخليت عني الآن؟ أي طائر سأنتظر عائدا من رحلة الحنين، محملا بتفاح الغواية وبرتقال اللذة وشمس المعشوقة.

أي حنين يأتيني من بعيد أمنحه لحظة الخلوة كل دموعي، وأضع بين يديه حرائقي فيضمني إلى دمه وقلبه. وحدك كنت الأقدر على لمس ذلك الجرح الذي لم تبرأ منه طفولتي مصمم أن يظل فيّ حتى الموت. من يستطيع اليوم أن يوقظني فقط ليقول لي صباح الخير يا أجمل عمر... يا دينك لو تعرفين يا هبلي كم أحبك، ونموت عليك. حبيبي، اسمعني قليلا قبل أن تنسحب من حياة هشة كالريح، من يسقط المطر حين يرى صيفا يمسّني ويبعثر غيما وثلجا حينما تكبر حرائقي؟ من يعيدني من تيه الموت على رعشة الحياة؟ لماذا تغادرني الآن، وتخون قلبك؟ ألم تقل لي قبل هذا اليوم، إن فيك ما يستعصي على الموت والقدر؟ لن أغادر هذه الدنيا قبل أن أعرّس كل العصافير والأشجار والأطفال بألوان الغيم وتغريد الفجر. بعدك، أصبحوا يتامى، وأصبحت معهم وحيدة، بلا متكأ ولا حنين ولا انتظار. أستعيد الآن جملك الملعونة التي لا تقدر حرائقها: عمري ذاب في السنين.

كم أشتهي أن أعضك بقوة حتى أدميك على هذا الكلام. ألم يكن ممكنا أن تؤجل رحيلك عني قليلا، فقط حتى أضمك قليلا إلى صدري، أمنحك من عمري آخر أنفاسي، لنستمر ولو للحظة مع بعض. لا أحلم بالشيء الكثير بعد غيابك المفجع. في أعماقي التي هربت من ملمسك وعينيك، شيء

من ميراث الآلهة. فيّ ما يحيي عالما من الموت وحقلا من الشوق، لكنك اخترت السفر كالبرق في عمق التيه. لماذا فعلت بي هذا يا قلبي؟ منحتك الحياة عندما وقف الموت عند عتبة بيتك، ومنحتني بعض عمر مازلت ألتصق به كالغريق. كان يكفيني أن أراك تأتي، وأشبع منك كالطفلة عندما تقول لي: أنا في المطار يا قلبي، وسأكون بعد نصف ساعة بين ذراعيك. أو تبحث عني بعينين متعبتين في مطارات الوصول. أركض نحوك غير آبهة بالعسس أوالشرطي الطيب الذي يتمتم مبتسما وأنا معلقة على شفتك: ماذا أفعل مع عاشقة مجنونة؟ وأجيبه بعيني كي لا يفصلني عنك: هذا حبيبي. ثم أغمض عيني وأتركني أنتفي فيك.

34 - جرّبني، فلن تخسر إلاّ النّسيان.

لا تجعلني أموت كلما أغلق النهار أبواب البحر وانسحب لينام خارج عواصف المدينة. سقط النجم الأخير في عينيك وملامحك الحزينة ثم انتفى. لم يكن جنون الريح وهبل الموج هو الذي أفقدك متعة الغفوة. كان فقط قلبي وهو يبحث عن نبض ضاع فيك. لم تكن العواصف التي سكنت رأسك تأتي من وراء النافذة المطلة على البحر، لكنها رعشة الجسد بعد أن ذبحته سكّينة الغياب. دعني فقط في هذا المساء الممطر أحس بأنك مازلتَ هنا. تعبر مثل فراشة النار حواف الجسد المحترق. اترك حقيبتك التي جابت سرك كما الدم فيك، اتركها تنام قليلا في زاوية الظلمة، ما يزال بيننا متسع من الوقت، وفراش من ورود مزقتها رياح الشمال ورمل الجنوب. لا أريدك أن تمضي كما تعودتَ أن تفعل كلما احتلت الغيوم سكينة عينيك. فقدتك بما فيه الكفاية، وأريدك اليوم أن توقف جموح حصانك وتمنحني فرحا أجلناه طويلا قبل أن يقف الموت عند العتبة. للموت سنقول، أغبياء سنكون لو منحناك آخر ما نملك؟ أنقذني من جنون أصبح ميراثي الأوحد وسجني الأكبر. امنحني قليلا من الوقت لأتعود على سفرتك الأخيرة نحو غيمة ستركض بك سريعا صوب حضن الغيب. لا يمكن

للسماوات أن ينافسني فيك، فأنا لم أشبع بعد من وجهك الذي منحني أيام الرماد، أجمل جنون، وألذّ ابتسامة أعادت لي الحياة. قل لي فقط إنك مازلتَ هنا لأصبح بعِطر حبك الأول. ستراني كما شاءت رغبتك الدفينة. ها أنا ذي في حقول الطفولة، أركض بلا تعب ولا توقف، أنت ورائي، لي ولك أنا. أجري وراء شعاع الشمس الطري، وألوان الفراشات الخجولة إذ تتخفى في عمق الزهر والنوار. اقبض عليّ كما تعودت أن تُسكن العصافير في كفك بحيل الطفولة. اسكن لباسي الفضفاض، ولا تسلمه للريح لكيلا تسرقني من سهوك. ارمني أرضا كما كنت تفعل عندما تلقي بنفسك على الحشائش العملاقة لتقبض على الطير الهارب، وتظنه عبثا في ممسك يديك. عرني قطعة قطعة، كما تفعل مع ستائر حبات الرمان، فلن تلمس إلا جسد طفلة ينبض بعطشك وروحك. حاول معي، مقاومتي كلها ليست إلا ريحا من فراغ. جرّبني، فلن تجد إلا امرأتك التي رأيت، وصلاتك التي نويت، وفراشتك التي اشتهيت، وجنونك الذي ارتضيت.

جرّبني فلن تخسر إلا النسيان.

ماذا بقي الآن بعد رماد الحياة وأيام لم تنتظر؟

نسيتُ أن أحيا، ونسيتُ أن العيش في الظلّ نهاية.

خسرتُ المسافات كلها، وضيعتُ عطر المكان. كدتُ أنسى الملامح وعلامات السرّ في وجهك الهارب. نسيتُ أن الحياة عطر يعبر فينا ولا ينتظر صحونا من غفوة الدهشة. لا شيء الآن في كفّي الجريح إلا سراب الريح وخطوط الحنين. ماذا افعل لأستعيد غيمك ونشيدك ودمعك السخي؟

ماذا أفعل لتجن بي كما جننتُ بك ذات نظرة، ثم همسة، ثم سكرة قادتني نحوك؟ ماذا أقول لجرحي الذي تماهى في خطوط وجهك الحزين؟ لم أطلب المستحيل لأكون صمتك وأنين خوفك وصحوك، نجمك وريحك. خسرت الرهان كما يخسره محارب اختار حربا غير عادلة. هبلي كان أكبر منك ومني، ولم يكن وجه ليلى إلا شيئا صغيرا مني. جائعة منك كغريب يبحث عن نسمة وطن، أو لمسة غيمة، أو ربما صدى جبل ظل يردد العابرين نحو التيه، وصوت الذين رحلوا مع النجوم التي ظلت تحرسهم قبل أن تمحي. لستَ وحدك من يشكو الغياب. أنا أيضا أتعبتني كوابيس الوهم والمستحيل. تعبتُ من أسفارك التي ترميني في حضن الموت عندما ترحل، وتحييني عندما أرى وجهك يخترق الحضور في المطارات الواسعة، ويركض نحوي بيتم وجوع. كل الذين كانوا هنا رحلوا أيضا مع أشواقهم وموسيقاهم وضحكاتهم، ولم تبق إلا الظلال. الموت لا يقتل الجسد وحده يا هبلي، لكنه يسرق

منا حتى همسة الذين كانوا يوقظوننا لنصحبهم نحو فجر الله.
لا أكره الموت يا قلبي لأنه أكبر مني. لا أكره إلا من أستطيع الوقوف ضده. دعني أحبك وأسكنك كما تعودت أن أفعل. لا تُسكن البرد في جسدي مرة أخرى بعدما خرجت من قسوة ظلت تتصيدك. لا تدفن نورك في كف الموت. لا تمح ملامحي كرسام لم يتقن خطوطه، فأنا أحبك مثل طفلة تخفق أحيانا في أن تقول لك ما يملأ قلبها، وفي أحيان أخرى لا يسعفها الخوف الشقي لكي تُسكنك جنتها. لا ترحل الآن، احملني فقط على جناحيك، معك واجعلني أطير فيك، فأنت ساحتي الوحيدة التي بقيت من رحلة دنيا لم تكن رحيمة معي أبدا. للحظة واحدة، دعني أقنع هذا الرماد ولو كذبا، أنه من نثار الجنة التي كبرتْ في ظلمة الخوف، وفي ليالي الشتاء الحزينة عندما كنت أدفن راسي في حجر أمي وأنام لكيلا أرى شيئا سوى لون اللمسة، وهمس الغيمة، ولا أسمع إلا نشيد الطير الذي حلق في الأعالي حتى تلاشى. لا تكن شقيا وتتركني في بداية سُلّم كلما تأملته وحيدة بان لي أقرب إلى السماء منّي. ابق قليلا، أحتاج أن أتذكّر وجهك، أن أرحل فيك بلا قيامة. لا تكثر الدق في الفراغ، فليس وراء الباب التي ستفتحها بعد قليل إلاّ موت ينتظر؟ إذا كنتَ تحبني، وإذا بقيَ فيك شيء من ندى فرحي، لا تدعه يتخطى العتبة، لأنه عندما

يتجاوزها، فلن يسمع إلا لسكاكينه وخطاه ورماده. أحتاجك فيّ نورا من طعم الغيم والمطر والأسرار. لا أريد أن أموت قبل أن أرى موتي يموت عند قدمي. أستخسر فيه هذا النفس الأخير الذي لا شيء فيه إلا عطرك وعرقك وطعم القبلة الأخيرة التي كادت تقتلنا يوم رسمناها بشعاع الطيف، على حافة موجة، غطت قلبينا حتى كادت تسرقنا.

امنحني بعض صحوك ودعني أذكرك قليلا إن كنتَ قد نسيتَ، بأن الحياة ما تزال هنا.

35 - هنيئا للغيم، هو أولى بك.

لي الحق اليوم في أن أكون سعيدة.

لي الحق كله، في أن أرقص التانغو المؤجل منذ سنوات، فالزمن الصعب لم يمنحنا فرصا كثيرة للسعادة. كل الفراشات كادت أن تموت ونحن أيضا.

هذه الشمس النادرة غيرت كل شيء في هذا الصباح. تقوم كما يقوم ملك الشجر والغيم والمطر، مفتوح الروح عليّ، وعلى كل ما يحيط بنا. لا تسأل عن خيبة ملأتك ذات خريف، ولا عن كسر صعُبَ تجبيره، ولا عن خوف سكنك في العمق حتى أصبحتَ مريضا به. تسأل عني فقط وترمي بكل مبهم عرض الحائط. تمد ذراعيك نحو سماء مرصعة بآلاف النجوم، تلامس ضوءها وتخشى عليها من الأفول. تفتح كفيك على اتساعهما، وتجمّع كل ابتسامات العشاق الهائمين في سرية الهوى، وتسكنها في صدري. شيء فيك حبيبي ينتصر دوما للحياة حتى وأنت في غير نهارك. قلتَ لي إن العمر يُمنح مرة واحدة بلا استئذان، ثم ينسحب أيضا بلا فرصة للسؤال. سعيدةٌ يا قلبي أنك أخيرا طردتَ ظلّ الموت من على عتبة البيت، وجئتَ نحوي لتبشرني بأن حياتنا ما تزال هنا تحضن

خوفنا، وأنّكَ لم تسلم أمرك لموت يريد أن يسرق مني قلبك. أنا في هذا الصباح مثلك، سعيدة فوق العادة. مادام قلبك هنا، فكل صباحات الدنيا بألف خير. وكل العصافير تحسدني فيك على دوخة الحرية ودوار الحب. كل صباح أفتح نوافذ غرفة النوم من أجلك، حتى وأنت غائب في تيه الأسفار، وأغرِقُها بألف شعاع جميل، أختارها وفق ما يشتهي حبيبي. كل صباح أخطو خطوة أو خطوتين ثم خطوات، لتستعيد الحياة فيّ حركتها وجنونها بلا كلل ولا ملل. سعيدة فقط أنك مازلتَ هنا، وأنك تملك سلطان يوم جديد نتقاسمه معا بلا خيبة ولا رهبة. كل صباح أمنح نفسينا فرصة لنقول صباح الخير لنا ولكل من يصادفنا، وتقول أنت لامرأة القلب بلا أسئلة الشكّ، كم أحبك. كل صباح يتأكد لي عبث تضييع الوقت في الذين يربون الضغينة في قلوب من لا يحبون. في كل صباح حبيبي، أرى سماءنا المشتركة التي يخطها قلبانا بأجمل الألوان السرية. كل صباح أيضا أفرج عن طيور الروح لتطير في سماواتها العليا بحثا عن لونها المشتهى. كيف لم ندرك بأن الحياة قصيرة وقد ضيعنا الكثير في حرقة السؤال؟ كيف لم ندرك أن العمر يأتي ثم يهرب من بين الأصابع كحب الرمان؟ هذا الصباح فرحت مثل طفلة عاشقة من شعرها حتى أخمص القدم، لأني تذكرت أولى هداياك في عيدي ميلادي وأفراحي

الصغيرة. كنت أسقي آخر باقة جئتني بها يوم نجاحي، عندما رأيت لأول مرة كيف تبرعم الأوراق الميتة، وكيف أن الوردة اليتيمة التي وجدت صعوبة كبرى للخروج من سجن الشرنقة، قد تفتحت أخيرا وأعطت لونا غير معهود. كل صباح أحتاج إلى أن أعيد اكتشاف العادي من رحم اليأس، لأتأكد من أن الحياة ليست بكل هذا السوء. كل صباح أراك هنا في سخاء الأنثى، وعندما تغيب أشكلك برعشة القلب وحنين السفر وشعاع الأمل وألوان المواسم، لدرجة أن يفيض بهاؤك على جسدي الصغير. كل صباح يا قلبي وأنت هنا حتى في بعدك، حبيبي الذي يملؤني، وهذا يكفيني لأكون أسعد غيمة تملك مساحة السماء كلها، وحقل النجوم، وألوان قوس قزح.

قلتَ لي ذات مرة وأنت تلملم حزنك وخوفك وأنينك الخفي: سهل أن أحبك. سهل أيضا أن أستمر في دمك. لكني عاجز أن أضمن نفسي من خديعة القلب. تلك عندما تأتي لتأخذني في دوار عواصفها، لن تسال عينيّ ولا قلبي ولا حتى عن قلقي. لن تستأذن من خوفي ومن حروفي القلقة. لن تلبس القفازات لتسرق قلبي. سهل أن أكون لك، لكني حزين أن أنتهي بين حرائقها. يومها حبيبتي، لا تلبسي لباس الحداد حزنا، ولو أن السواد لون اشتهائك. حاولي أن تقللي من وجع الدموع، وانزلي نحو المدينة، فالمدينة كانت دوما وعدنا ودرب

هروبنا وملاذ جنوننا. اختاري أجمل الأزهار باللون الذي تشتهين، ثم بعثريها وطوحيها على حواف ساحلنا وموجنا ومراكب الصيادين فهم يقدرون عشرة البحر. اتركي قليلا من ورق الورد للمسارح وقاعات السينما والأوبرا التي جمعت أنفاسنا، وقاسمناها عرقنا وعطرنا وضحكاتنا المسروقة، وقولي لمن في قلبك أو على يدك اليسرى: هنا سكنت رفقة حبيبي، وهنا مددنا الأيادي للغيم لكي يمطر وللنور لكي يشهق من دوار الدهشة، وهنا أيضا شعرنا كم أن الموسيقى واللغة واللون كانوا رفاق الفرح في عرش الخوف واليأس. وإذا كُتِبَ لك حبيبتي أن تمري على قبري في يوم من الأيام، فانا اخترت ربوة القرية الصغيرة لأكون بالقرب من أنفاس أمي وناسي، وأصدقاء الطفولة. قولي لأي طفل يعبر بالقرب منك: أريد قبر رجل الغيم، ونعل الريح، وطفل الحنين، سيؤشر لك: هناك على الربوة حيث السكينة وألم الفقدان. ضعي بعض البنفسج البري على تربتي، سيزهر فرحي وتحلق طيوري في روحي. قولي لظلك إن جئت بلا رفقة، لأننا عادة نزور وحيدين قبر من نحب، حتى لا ينغص علينا أحد سكينة الروح: هذا قبر حبيبي. مثلما أمضيت العمر كله أقرأ الفاتحة على القبور المعلومة والمجهولة برفقته. أقرأ اليوم فاتحته. ثم أغمضي عينيك ومدي يدك اليمنى قليلان قليلا سآخذها وأضعها على دفء

قلبي. عندما تنامين، أو تغادرك غفوة النوم وتشتد عليك حرائق الخلوة، تذكري كل الأناشيد التي أهديتك لحظة جفاف الروح. أسكنيني في صوفية الآفلين والطيبين. الأموات يحبون يا قلبي، ويرون أيضا، ويشتهون أحيانا. امنحيني صوتك لأنومك في قلبي، كلما انتابك وجع البعد. اجمعي كل عمرنا، وضعيه في سريرك، وتدفئي به كلما كانت الشتاءات قاسية. وإذا أتعبك حضوري ونغص عليك حياة أخرى، أغلقي كل نوافذي، لكن المسي قلبي ولا تعنفيه، فهو هش، ويشعر بالبرد بسرعة، وإذا حزن سيخرج من ثقوب الخوف ولا يعود أبدا. قولي له فقط: أرجوك تعبت، وأريد أن أنسى قليلا. سيفهم وسينسحب بصمت، ولن يغضب منك. أيها المجنون من علمك فنون الجرح؟ هل تفعل هذا لتختبر حبي؟ ما دهاك؟ ما أقساك؟ لستَ في حاجة إلى كل هذه القسوة لتدرك أني ممتلئة بك كما في أول يوم. يوجد حبيبي قدر أجمل اسمه أنا. حبيبتك. امنحني فرصة أخيرة لأقول فقط كم أحبك. بعدها امض نحو تيه كم كنتُ أعرفه، وكم كنت أخافه. كم مددت لك أجنحتي في صلواتي الخافتة فقط ليحفظك الله لي. هذه المرة لم يكن القدر حليفي، وسرقك مني بلهفة المنتقم. تذكر حبيبي عندما تتأملني من سماك، أني ألبس عطرك كل ثانية. ولن أرتدي الحداد كما أوصيتني، لأني سأسكن بحرك ولونك.

أنتشي مثل عاشقة تكتشف لأول مرة سحر الحب.

أفتح رسائلك القديمة التي وقعتها لي بمدنك، وأتوسد أسرارها وألوانها وكلماتها. أزور تربتك محملة بالبنفسج البري، فقط لأقول لك مازلتَ هنا، وكم أحبك.

دعني أرتضي بعطر الحلم، في انتظارك.

36 - أنت هنا حيثُ ظلال الروح

حبيبي وهبلي السخي. لماذا تشيح بوجهك عني. لا تخف جرحك، إني ألمسه كل ليلة وأخفيه في دفء الروح لكي تعود لي بسرعة كما يشتهيك قلبي وعيني وكل جنوني الذي لا أحد يراه غيرك. انزع عنك لباس اللون واللغة، فأنا أعرفك يا عنيد الشوق وأعرف عطبك السري، لهذا لا أستأذن الفرح ولا الحزن للزج بك في نهر دمي. أنا متعبة من خيبة اليوم والليل والغيم والنور والبحر، لكنك هنا حيث ظلال الروح ولمسة اللون إذ ينبت الأمل في ظلمة الخوف. أتحمل بصعوبة وجع هذه الدنيا التي تخذلني في غيابك. تتعبني الأسفار التي تبعدني عنك في كل مرة وتفصلني عن حبلك السري. تقتلني إذ ترميني وراء نجم بلا مسافة وبحار بلا أسماء. أريد أن أرجع إلى أرضي الأولى لأحيا وأموت كما الشهوة القصوى، برفقتك في كل ثانية، كل دقيقة، كل ساعة، كل يوم، كل شهر وكل سنة، وكل قرن إن تمدد العمر. كل الزمن الذي يمضي، تسرقه فجوات الأنامل، هو حق مسروق من غفوتنا الطفولية. نهر لن يعود إلى منبعه ليرضي هبلي. أشتهي أن أمحو بلمسة العاشق، الغيمَ والأرض والسماء والألوان والعواصف، ولا أبقيك إلا أنت في عمق حليب البياض ورغوة الشوق، ثم أقف عارية

أمام فيضك، من كل لحظات العمر الماضية التي أبكتك كثيرا. وأهز يقين الزمن الذي لم يكن رحيما معك. أبكتك أمك التي هددتك بالغياب الأبدي ولم تعرف أنها كانت تزرع في قلبك بذرة خوف لا ينتهي. أبكتك امرأة لم تعرف كيف تكون أمك. أبكاك المطر إذ هاجر في وقت مبكر ولم يترك إلا شقوق الجفاف في جسد كان وردة. أشتهي أن أمحو بلمسة الولهان الضائع بين أرصفة حريته غير المعبّدة لأبدأ الخليقة منك وأسميك كما يملي عليّ قلبي. شمسا. بحرا. برتقالة. ريحا. وأكتشف الألوان من جديد معك وأغمس فيها ملامحك ووجهك ومحيطك وسماءك وبحرك وبعض غيمك. أبتدع الماء في حضرتك وأدخلك فيه وأغرق فيه جسدك وشعرك وعطرك. أصنع لك ألف غيمة تأتمر برمشة عينيك وابتسامتك. وأعطيك من بقايا روحي لترميم أعطابك. لست إلها صغيرا يحكم أنفاس العشاق وشطط الحيارى، ولا أريد سلطانه. عاشقة أنا، أصغر من نجمة احترقت قي سماء عاصفة. أصغر من نهر يخط كل يوم طريقه السري ليهرب ماءه نحو مرآته التي جففها عطب الخوف. هاربة أنا وخائفة من أن يدركني ظلي ويسرق مني بوصلة التيه ووقتي وجنوني وحماقتي التي نبتت فيّ بدون زراعة. بذرة رميت في قلبي بالصدفة، فنهضت لونا ولغة من رماد وغيم، وعطرا وورودا. أشتهي أن أمنح الحياة لحبيبي

لا كما فرضتها لحظة الانفجار الأول لشمس قتلتها أنانيتها ونورها ونارها، ولكن كما تخيلتها وأنا طفلة بألوانها وعصافيرها وغيومها التي تحلم وتحزن كلما ضاق قلبها وانسحبت الدنيا من بين عينيها. هل فهمتَ الآن هذا الظل الهارب الذي لم تمحه الحرائق ولا عواصف المحيطات ولا تشققات السماء قبل أن يهزها جنون روح كانت تصلي لصدفة الأقدار الخفية. من قال إن الحب هو ما نعهده ونستأنس به؟ أليس عاصفة ترمينا بعيدا وتمزقنا بعنف، وعلينا أن نعيد تركيب أنفسنا قطعة قطعة قبل أن نشق طريق الشمس نحو بعض؟ مثل صيني كنتَ تخافه وتعشقه في الآن نفسه: تهيأ للحب كأنك لم تعشه. وتهيأ للفراق بأن تقرأه في عيني حبيبتك. انسحب عندما تغيّبك ظلال أخرى في عينيها، اخرج وأغلق وراءك الباب بهدوء لكيلا تنغص على سعادتها التي منحتها لك في يوم ما، لتصبح فيها وتمسي فيك، أخف من ريش اللغة وأثقل من عواصف الذاكرة. وتهيأ للحب والفراق حتى لا تنسى أبدا أن الحياة لمعة تبرق مثل نجمة، ثم يأكلها الظل.

أن تحب يا قلبي لا شيء آخر سوى أن تعرف جيدا أعطاب من سكنك ومن قادك لتعبر عميقا دهاليز نفسك المظلمة.

38 - ولادة في حافّة الانتظار؟

حبيبي، كيف يمضي الوقت بين يديك؟

لم تفقد كلمة حبيبي وهجها أبدا، تتلون بسحر اللحظة التي تركض نحو العتمة أو سحر النور.

ولم تستنسخها عادة الوقت القاتل حتى ولو استقبلتها كل أكف الحياة. كلما قلتُها أو سمعتْها حواسي، ارتعشتْ فيَّ العواصف النائمة. كل ما فيّ يغزلك عينا عينا وخيطا خيطا، ويغنيك مفعما بحرائق تراتيل المحارب الأخيرة، وهو يدخل نارا يعرف أن معابرها غير سالمة. حبيبي. شططي ومسافاتي التي يختزلها في كل ثانية حنين القلب وجرحه، هل تعرف من أنتَ فيَّ؟ كلما غفوت قليلا بحثا عنك في الحلم، فاجأتني كلماتك وقادتني نحو ذراعيك بحثا عن راحة مستعصية في غيابك. أراكَ ريشة في عواصف القلب والسماوات التي تزورها كل يوم بين حياة مفترضة وموت محتمل. تعلو وتنزل مثل الروح، ولا وسيط بين التربة والماء إلا هبلي عليك وتيهي فيك. سألتني آخر مرة، مع ابتسامة تسحبك دوما نحوي ولا تسألك عن رأيي، وكنتَ تلملم أغراضك للسفر، عن اسم ولون وتاريخ عطري الأول. في سؤالك ملعنة صبي عنيد لا يريد أن يفهم أن الحياة تكبر

وعليه أن يصبح هو أيضا رجلا، أصبحت **أعرف** أسراره ومزالقه الخفية. قلت لك بلا خوف من سر العاشقة التي لا تريدك رجلا مشاعا: هل تدري حبيبي أن لا خزائن لي تتنافس فيها الأنواع والأسماء وأوجه العارضات والعشاق المنسحبون. أول عطر أتت به صدفة أسفارك. أول عطر لم أكن أعرف لا لونه ولا اسمه إلا من بريق المجلات. منذ ذلك الحين لم يتغير شيء فيه. سكنته وأصبح لباسي رفقة قلبك وحرير أصابعك. كلما قلتَ أي عطر تشتهين وأن تمسح على حرير وجهي بمخمل أناملك، أجبتك بلا تفكير: تعرفني أتشبث بطفولتي الأولى. لن أطلب سوى عطر يشبهني، غسلني أول مرة مخلوطا بعنف الموج ورائحة البحر وأنفاسك وبعض عرقك الهارب. وكما يحلو لي أن أستفز قلبك وذاكرتك، سألتك: قلْ لي حبيبي وأنتَ؟ أية امرأة منحتك أجمل عطر، وأسكنتك دوار الهبل؟ أية أنثى سرقتك وخبأتك فيها لكيلا تصلك أية امرأة أخرى؟ أنت أيضا طفل القلق السخي حينما تخونك الكلمات. صمتَّ ثم التفتَّ نحو سماء الغيم التي أمضيتَ في ظلها نصف العمر. ظننتك تحدثني عن عشيقة سرقتها منك الأقدار، لكنك وضعتَ وجهي بين كفيك كما يفعل الذين قطعوا بحار الخوف وأنبتوا الأمل في تربة اليأس. وغرقتَ في عينيَّ زمنا مر أمامي كرمشة العاشق الذي تسرق الدهشة

وقته. تمتمتَ. لم يسمعك إلا قلبي وحاسة عشقي وسماء تتأملنا في كل ثانية بشغف. قلتَ: عطري. تريدين أن تعرفي شكل ولون وطعم عطري؟ رائحته استكانة في عينيك وشوق لا يهدأ أمام المستحيل. مذاقه رعشة الفراش بعد غياب طال حتى استحال تحمله. غيمة تفصلنا قبل أن نرتديها ونسكن في خيمتها. عطري؟ فرح يشربني كلما خانتني الطرقات، أشربه من شفتيك كلما كان القدر سخيا. عطري؟ حين أستحم بك وتغرقين في عرقي ونغتسل معا من خطوات الخوف وسطوة الفراق. عطري؟ منك أنتِ ينشأ، في أعالي الشهوة والجنون. أما علمتِ بعد أن في عرقك عطر زهر الرمان، ونبتات الشيح البري، وبنفسج البيت القديم، وعطر الحجر الرخو. عطرك من مطر الخريف إذ يأتي محملا برذاذ زمن مضى ورعشة زمن يأتي وآخر بين الاثنين ينتظر محملا بأشواق التربة وحنين الغياب ورائحة الغائبين. تسألينني عن عطري؟ حنين الغياب الذي ضيع اللغة وانتسب للتيه. برق الليل اذ يقتحم خلوة الأشجار ويفتح طريقا للفرح في كفِّ الموت. عطري يا قلبي، أنتِ حين تقفين في المطارات المكتظة ويقودني نحوك دليل لا اسم له إلا رائحتك من بشرة الورد وزيت القبائل وورق التين.

ماذا أقول بعد هذا يا هبلي، سوى أن عطري عرقك على ملمس نزيف الغياب. قلّل من الموت البطيء في أعالي النجوم

وتعال، أحتاجك حبيبي عطرا من تربتي التي ألبسها عندما أصبح عاشقة، وتلبسني عندما ينتابني غيابك.

لم أيأس من لحظة الوجد والحب الكبير.

نم قليلا حبيبي. الغد سيكون مثقلا بالريح وبعاصفة ترتسم على حواف القلب منذ حين.

الحياة التي تمضي كل يوم تسرق يقينا.

نم قليلا. المعابر التي تعودتَ عليها لم تعد سالكة. متعبا صار وجهك وقلبك وخطاك.

قلقا أصبح حنينك ولغتك.

حلّق كما تشتهي خارج كل ما تعرفه، وانس ما تعلمته في المدرسة، وحتى ما قالته لك أمك. الطيور يقتلها العكس؟ ولا تموت بفعل التحليق أو كلل الجناحين. سهل أن نخط طريقا للكائنات نحدد فيها كل ما ...يجوز وما يحرم فعله. سهل أيضا أن نلعن حرائق القلب وسهل أكثر أن نقول إن الفراشة أخطأت حينما اختارت طريق النار. سهل أيضا أن نصنع ممرات بالأبيض والأسود أو بالألوان لكائنات التيه. لكن يا قلبي أما عرفتَ أن الحياة شيء آخر؟ مسلك من هشاشة ومعابر من أوهام. يسعفك القلم إذ تخط مصيرا وترتبك أمام خيبة المطر والريح فيك. دعك من كل هذا. انس كل

يقين نقشناه على الماء أو في كف الخوف وتعالَ. نخاتل ولو قليلا، جلافة موت يكبر كل يوم فينا لنمنحنا المستحيل. نحن نستحق المستحيل.

ماذا سنخسر لو محونا كل خطوط القدر، وفتحنا أعيننا وكأن الحياة لنا وحدنا؟ وأننا آخر عاشقين على وجه الأرض يستحمان بنشوى الجنون.

لا يقين يا قلبي إلا موت ينتظر.

39 - ألبس وجعك الذي أعرف سرّه

ابق قليلا.

لا تذهب الآن، في الدنيا متسع لفرح لا يموت أبدا.

ألم تتعبك الأسفار والسماء وأصداء القطارات؟ ألم تنتبه بعد أني في أنفاسك، أنتظر منذ سنين عودة الأمطار وربيع الشوق فقط لأراك قبل أن تسرقك الرياح؟ لا تغرق في دخانك حبيبي واذكرني كما تعودتَ أن تفعل في خلوتك. شيدني في قلبك من لفافات الغيم والخزامى وطعم الريح وتذكر أن امرأة لا تملك غيرك تفكر اللحظة فيك. أنت لم تمنحها سجنا ولا خيبة. لم تتسبب في عاصفة القلب ولا في شطط... الخوف. يملأني يملؤني وجعك الذي أعرف سره. وجع تسكنه خيباتي ولغتي المسدودة. أشتهي أن أمنحني لك ببعضي أو بكلي، لكني لست سيدة القلب والجسد. أتماهى فيك فقط لتخرج الوجع الذي رأيتُ دفعة واحدة؟ قبل أن نمضي للمرة الاخيرة نحو شمس تأخرت كثيرا. كل السنوات التي مضت يا قلبي عرفتني بجرحك. خذني بما تملك من هبل، فحياة تأتي أجمل من جرح مضى.

أعيرك لساني لا لتزهو بسلطانه، فقط لتقولني في الملح الذي وضعته في غفلة مني، على جرحك.

لا تغرق في دخانك لأنك كلما فعلت ذلك أشعرتني بأنني ابتعدت خطوتين عنك. هل تدري يا قلبي ما تشتهيه امرأة من رجل؟ لا سنه ولا عمره ولا أناقته ولا حتى وسامته. فقط أن تنام بين ذراعيه ولا تفكر في النار التي تحرق لغتها. أن يمد يدها ويحضن وجهها فقط لتشعر بأنها ليست وحيدة في عالم موحش. حتى ولو سرقك تيه يرتسم في الأفق بلا هوادة، تذكرني وأنت تشعل السيجارة الأخيرة التي تحرقك كل يوم قليلا. كنت حظي الكبير في عالم ضاق عليّ. وأنت اللحظة ضيقي في حظ سُرِقَ مني. خذني كما أنا ولا تصنع لي صورة تؤذيك. لست أكثر من امرأة تحبك. لا تجعلني إيقونة لأنك وقتها ستقتلني حتى ولو علقتني على صدرك. الأيقونة رديف الموت المشتهى. أنا امرأة من خيط الروح وشهقة الريح ورعشة الغيم. لم أخف عنك إلا ما يعذب قلبك ولم أمنحك إلا ما يجعلني قدرك.

لا تغرق في دخانك حبيبي، فأنا هنا، ألبس وجعك الذي أعرف سرّه، وأنتظر أن تقوله.

قُلني فأنا حتى في عمق جنوني، لم أكن إلا لك.

هل تعلم يا هبلا يسرقني ويمنحني قيامك الخوف؟

اليوم، مر أكثر من ألف ليلة على تعارفنا. ألف ليلة وليلة على الكلمة الأولى.

على البسمة الأولى.

على اللمسة الأولى. على الرعشة الأولى.

تردد على مسمعي لذة القول العاشق: ما زلتِ أنتِ كما أنتِ. كعادتك، كلما امتلأ قلبك خوفا، تغيبين. تفتحين أبواب المبْهم في داخلك، ثم تنامين، ولا تنسين أبدا أن تسدّي الأبواب والنوافذ وكل الفجوات الصغيرة. يعذبك المستحيل الأخرس، والألوان الحائلة والقصص القديمة التي لم تكوني حاضرة فيها قبل عمر مضى. أضحك من هبلك الجميل. لو كان العمر شريطا، لسحبته إلى الوراء ولرميتك في عمقه وتركتك تركضين فقط لأشفي عطشك وغليلك. على من يحبك أن يجمع شتات كلامه وهو يدق جدار الخوف ليجد وجها وصوتا ولغة لصمتك. انتظرتك حيث التقينا أول مرة حيث لا ظلال إلا ظلال العصافير والقصص القديم. انتظرتك حيث نمنا لأول مرة على سرير من غوايات اللون الذي تشتهين، وموج البحر، وتلحفنا سماء لأول مرة أراها على مسافة غيمة، وبعثرنا كل النجوم الصغيرة لكيلا نرى

في الظلمة إلا وهجها. انتظرتك مثل صبي ما تزال الكلمات ترتجف في فمه كلما أخطأ أو ارتبك في نطقها، وفي حضني قاموس من الكلمات نحتناها من وجع وفرح لكيلا نشرك فيها أحدا ولو أن بعضها سرق منا واعتبرنا ذلك صدقة حب للعشاق. هل أقول أني تعبت؟ قبل أن أحزم حقائبي القديمة، المثقلة بالانتظارات والاسرار، وأرمي بقلبي في فراغ بلا صوت ولا ماء، أبحث عنك للمرة الأخيرة فيَّ.

تدهشني حبيبي. أكاد أصرخ: هل هي لعنة العاشقة؟

ثم ماذا لو انتظرت قليلا فقط لأقول لك صباح الخير يا هبلي، وأمضي في كل درب يقود إليك؟

لا تنس أن امرأة تحب، قنبلة موقوتة، لمس غير محسوب، يفجرها، وتصبح فجأة شظايا لا شيء يلملمها ويجمع نثارها المستحيل.

تتمتم في أذني: خلقنا لحياة تكبر دوما، ولموت لن يكون. أكاد أصرخ في وجهك: يا مجنون كلامك كفر. الموت سيكون. تضمني إلى صدرك: يوم يأتي سأرفع كف الحب، وعندما يراها، يُجن الموت وينسحب. أنتِ لا تعلمين أنك كلي. وأن بعضي الأكبر فيك. كنت هناك عندما غامت الشمس في عينيك ونسيتِ أن تتدفئي بمعطفي الخشن. كنت على حافة

أنفاسك عندما نسيتِ أن لا مدينة إلا بغوايات حب لا نعرف سرّه. وكنت أيضا هناك عندما نزعت نعلك من شدة صعود أدراج المدينة وتنفست بلا رئتين. لم أكن بعيدا عنك عندما كانت المدينة تضج بحزنك وقلبك ورعشات العزلة. كيف تكون المدن عاشقة بلا عشاق؟ أو بلا وجه طفولي وشفتين نسرق منهما قبلتين على مرأى العابرين.

وأنت يا مجنون، أقولها بانتشاء العاشقة: هل تذكر دوخة العشق، وكيف نسيتني في مقهى الاستراحة عندما نزلتُ أسرق من المطر غفوته وأسكنها في قلبك لكيلا تسرقك المسافات؟ لم تربي عندما عبرت بالقرب منك وأنت تشرب الكأس الأخيرة في انتظاري؟ الحرية في الحب فاتنة لأنها قصيرة وقاتلة.

كنتُ هناك عندما كنتَ تبحث عني في منافي القلب وعطر المدينة.

كنتُ فيك إذ نسيتَ أني في دمك، ولستُ مقيمة فيك.

حزينة فقط على بحرك الذي ضاقت به السبل، فصغر حتى أصبح نهرا وتمادى في نسياني.

أنا عاشقة حبيبي، فلا تلمني، يأسرني قلب رجل يهتم بحزني.

الرجل الذي مرّ من هنا وسكن خلوتي، لم يكن أحدا غيرك.

لم تكن ظلا هاربا، لكنك كغيمة لا أحد يعلم أين تمزقت، وكيف تاهت في سماء غابت زرقتها.

لا أحد يعرف أنها لي.

كلما غبتَ اليوم، ألبس وجعك السري وأمضي نحوك، بلا خوف ولا قلق.

لن يخذلني دمك، ولا رقصة التانغو الأخيرة.

40 - انتظرني حبيبي

على ارتفاع 40538 قدما. ودرجة حرارة اقل من 96 فهرنهايت تحت الصفر. أعبر الآن السماوات العالية التي أشتهي دوما أن تكون رحيمة مع قلبي، على حواف الهند والخليج وإيران. أعلو في مهب الريح والحيرة حتى أصل النقطةالخفية التي تشبه نقطة بياض اللارجوع. أصعد كلمسة عاشق مخففة من كل أثقال الحياة. يسجنني وجهك وقلبك فأتماهى فيك. يأخذني السؤال ريشة في مهب الخوف الخفي. هل يعقل أن حبك يسحبني نحو الأعا... لي لدرجة أن أتحول في حضرته إلى ذره عابرة للمحيطات تبحث عن شبيهها. أرى العالم من الأعالي يغرق في حليب الغيم الآسيوي. يا الله هل هذه الأرض جميلة لدرجة مبكية؟ كيف أصلك يا قلبي وأنتمي إليك. كيف أحبك. هل بإمكانك أن تنتظرني قليلا؟ يأتيني عطر هندي مكسو بأنين سيتار رافي شنكار الذي يأسرني ويعيدني إلى طفولتي عندما كنت أقف في الصفوف الطويلة فقط لأتمكن من رؤية فلم هندي يبكيني وأنتشي بدمعي وأغادر قاعة السينما في أتمّ الراحة. لا أعرف من أين تأتي كل هذه الشلالات من النور الي تسحبني نحوك وترميني على صدرك لدرجة أن يختلط حليب ميما الكبيرة بدهشة ميما الصغيرة وهي تتلمس شفتين جفتا

من شطط الأسفار. أصعد عاليا ويزداد جسدي خفة وقربا منك. أعتقد أن الأرواح تخف كثيرا عندما تصعد إلى السماء للمرة الأخيرة وتستغرق وقتا جميلا وهي تتأمل عالما لن تراه ثانية. تملأ رئتيها بهواء البحر الذي تزداد زرقته وسط سواد يحيط به من كل مكان ويكاد يلتهمه. كم تبدو البرتقالة الزرقاء جميلة وكم يبدو الفراغ الذي يلفها موحشا. تتشبث الروح في الهواء. تغرس أشواقها في الرياح والغيوم لكي تقف قليلا ربما رأت معشوقها الذي تركته وراءها الذي بكى فقدانها بمرارة، يتقلب في سرير العزلة أو يعبر ساحلا مقفرا، فقط لتبتسم له كما في المرة الأولى في صلوات الصدفة وتقول له صباح الخير حبيبي. تتلمس وجهه وشفتيه كما في الحماقة الأولى. تمد له أناملها يقبلها واحدا واحدا ربما خففت من شوقها له. انتظرني حبيبي أودع كل ما تركته ورائي وأعرف أنه لن يلحق بي أبدا: شتاءاتنا الدافئة .قبلك المسروقة. الليلة الأولى التي غرقنا في أنوارها ولم ندر ماذا كان علينا أن نفعل لتستمر طويلا ونتماهى في بهاء لم نتعود عليه. انتظرني حبيبي أجمع كل الانخطافات التي كنت كلما رأيتك من بعيد أو من قريب أفقدتني صوابي وأصبت بالدوار. انتظرني. لا أستطيع أن أترك ورائي بسبب ضربة قدر أو خديعة قلبية كل رعشاتي التي لم يرها أحد غيري والتي لا

أملك يا عمري حيالها أي سلطان. انتظرني حبيبي أجمعها وأضعها بهدوء على سطح البحر ربما وجدها العابرون وخبأوها في قلوبهم المرهقة. انتظرني حبيبي لأعتذر لك هذه المرة عن الكذبات الملونة وأشعل فيها لهبا مقدسا وأحملها رمادا معشقا بالجمر والحجر الكريم وأضعها في كفيك الطفوليين ربما عذرت هبلي نحو حياة لن نشبع منها ولن تشبعنا وغفرت لي لاني في يوم ما كدت أنسي أنك كنت تحتل كل قلبي ولا مساحة فيه لغيرك. انتظرني يا قلبي أجمع كل طائراتي الورقية الخفيفة التي كنت أسابق بها الريح على حواف البحر. هي تعبر سماء خفيفة وقريبة من رأسي وأنا أركض على الحواف، تسبقني، أسبقها حتى تتداخل مع جرينا أسراب النوارس فنركض نحو مدى لا يحده إلا التعب ودوار قلوبنا الصغيرة. انتظرني حبيبي. فانا لا أملك إلا هذه الرقصة الهندية التي تعيدني إليك. ما تزال إيقاعات رافي شنكار الحزينة تملأ قلبي. أشتهي أن ألف هذه الرقصة الاخيرة بخيوط الشمس والشوق وأغلفها بغيمة مسالمة وأسكنها في قلبك لأني بدءا من هذه اللحظة المسروقة من ظلال الغيب، لن يكتب لي أن أرقصها معك أو أراك وأنت ترقصها أو نستلذ بمن يرقصها أمامنا في السينما أو في ساحات بومباي. انتظرني حبيبي. انتظرني، بي شوق يغمرني

ويغريني فيشدني إلى هذه الارض الصعبة. ماذا أفعل يا قلبي لأطلق سراحي منك ومنها. مشدودة أنا إليك بألف خيط من الشمس وحبل سري قطْعُهُ سيقتلني لا محالة. كل شيء يناديني عاليا لأعبر السماوات الكثيرة. ستكون الرحلة موحشة بدونك. لا مطر يا قلبي يضمنا بعشق ولا غيم يعجننا في حليبه. لا شيء سوى بياض مفجع ينتفي فيه كل شيء. حتى وجهك الذي منحني حياة غير مرتقبة، سيغيب أيضاً. انتظرني حبيبي. دعني فقط أقول لك كم تبدو في هذا الغيب المرهق شهيا وجميلا وناعما ومستحيلا. انتظرني حبيبي. كم من وقت ضاع في السؤال وكم أشتهي اللحظة أن أمحو كل الأسئلة وكل الإجابات القاسية. أن أجمع كل شيء وأملأه بالحنين المسروق والمطر والغيم والنور وشلالات الفرح. انتظرني حبيبي لا أستطيع شيئا حيال عنادي في أن أشبع منك قليلا قبل أن تقطع يد القدر الغامض حبلنا السري. انتظرني.... انتظرني فقط. ما يزال في الدنيا متسع صغير لحبك.

لماذا كلما غبتَ، غاب معك شيء مني الى الأبد؟ كم أشتهي لو كنت هنا لتغير كل شيء. العواصف التي في داخلي. الهبل المختفي في جسد اللغة. لون البحر وعيني وبشرة هواجسي. تمنيت لو كنت هنا الآن لاستقام الشعاع النازل من السماء

بكسل وخيط المطر العاشق وارتعاشاتي الداخلية. لو كنت هنا لجعلت البحر يغار من ظلاله والسماء تخاف من صمتها.

لو كنتَ هنا لنمت في قلبك قليلا ولاعتذرت لك عن حماقاتي ولعرفت كيف أحبك بلا أسئلة.

لو كنتَ هنا لفتحت عيني عن آخرهما وشبعت من وجهك.

41 - صباح آخر تقتلُه

يعود الصيف، ثم يمتطي ملحه ويهاجر.

يأتي الخريف محملا بعطر السحاب، ويمضي بلا سؤال.

يأتي الشتاء مثقلا بأنين من لا فراش لهم، ثم ينسحب من ظل إلى ظل، حتى يغيب.

ربيع آخر يأتي وأنت بعيد، في رماد البراكين ولغة المبهم والتيه. تشرق شمس ثم تغيب في ظرف الساعة، يموت الفراش بعد ثوان من اختراق سجن غلاف الموت.

لا بحر لي، ولا سماء تغطيني. عارية كما الجرح الدفين. ترتد أسئلتي نحوي، محملة بشكوك الحاضر وبعض ما سيأتي.

من ذا الذي يصنع المعنى في جفاف اللغة؟ ومن ينشئ التأويل من حطب الخطاب؟

كل الفصول تلعن قدر اللاّمعنى. تأتي ثم تذهب في دورة عمر ينسحب بلا فرح ولا حنين. تمنح عمرها للخلق كله، ولا أحد إذ تنسحب، يراها.

كيف لي أن أستعيد وقتا هرب محملا بعطش الحنين؟

هل تدري حبيبي أنك تغيرتَ كثيرا، وأن سماعك لي لم يعد

حديث ساعة العشق. أتدرى كيف كنتَ توقف الخلق لشراء وردة. تركن السيارة في زاوية الممنوع، وتركض نحو بائع الورد. أسمع صوتك يتخطى المألوف: حمراء لقلب لا يموت. صفراء لجناحي الملكوت. بيضاء لصفاء قلب لا أحد غيري يعرف حزنه، كلما صمت طويلا وبكى في السر، أذكرت كم هو وحيد.

اشفني منك لكي أنساك دفعة واحدة، و بأقل قدر من الخسارة.

النسيان مثل الرصاصة، لا يخرب عندما يمضي سريعا في الجسد والخلايا، لكن عندما يستقر ويصبح مرضا لا يُشفى. كم من مرة سألتك عنه، لكنك لم تجبني، وإذا فعلت، فبين شفتيك: النسيان مثل الحب قدر لا يمكن تفاديه. كلما هربنا بعيدا وجدناه في الشجر والريح، ومعابد الهاربين من الحياة، على موت كل يوم يلبس قناعا ليصبح مقبولا.

مضى زمن لم أسمعك تقول أحبك، ولا حتى صباح الخير؟

كنتَ كلما رأيت حزنا يطير كالجوارح في عيني، سحبتني من يدي بلطف العاشق: أغمضي عينيك ودعينا نمضي بعيدا، ونصعد سلالم السماء بحثا عن صوت ننحته من قيثارة نامت زمنا في الظلمة، أو من سحر كمنجة تصدح بكل العواصف التي تنام فينا.

اليوم، كأن القلب جفّ قليلا، والسمع مات أو يسلك طريق الموت. لم تعد موسيقانا تعني لك الشيء الكثير. إذ كنا نهيم في مدى لا نعرف عن نهايته، الشيء الكثير. كيف نسيت عيد ميلادي، أليست تلك علامة من علامات الموت؟ لم تعد تشعل لي سيجارة من شفتيك، أو تمنحني كأسا من عسل الشوق ودوار السحر.

انسحبت أوقاتي ومضت حزينة، وأنت في سجن اليقين. رجل خارج الخطأ والشك، وفي عمق الاستقامة. تنفس قليلا كما لو أنه النفس الأخير واصرخ في نفسك، وهزها لكي تصحبك وتفهمك، وتكبر فيك.

هل تدري حبيبي اليوم كم من العمر مضى بين كفيك وعينيك؟ هل انتهت النار التي كانت تجمعنا في أوقات الحب والعبادة، كل شيء أصبح سجين الذاكرة؟ فقدت كل حلفائي، قلبك، ابتسامتك وذلك الجسد المديد. هل هو العمر؟

الحب ليس لغة في الريح، ولا كلمات يمتصها ليل. الحب جناحا فراشة عاشقة، كلما هززتهما بعنف تحولتا إلى كفن. يكفيني نبض واحد من قلبك ليستقيم كل الغياب والعتاب. تكفيني لمسة بلغة الحنين لأنتهي في دفء ذراعيك.

الحب استراحة المحاربين في ظلال الجسد والروح، فلا تخسر عبثا ما أعطاك القلب من فرح، واللسان من عطر وشهوة، واللغة من سحر ودوار.

لا تخسر ما أعطاك الجسد من حنين، والنهد من أمان. ألا تدري حبيبي أن العمر قصير، وأن كل ما كان لن يكون. نذبل كما أشجار اللوز في عزلة الفراغ، وكما الورد نموت قبل الأوان. هل يمكنني أن أصرخ بأعلى ما في قلبي: لست سعيدة لأني أصبحت أخافك وأخاف عليك منّي.

ألم تقل ذات حرقة، إن الخوف هو العتبة الأولى للموت المبكر.

كل ما كان بيننا أطفِئت بقايا قناديله المشتعلة، ألوم من؟ أنت أم أنا؟ أم نحن حينما خسرنا الموعد الأخير مع الحياة؟ كل ما كان أصبح ألما وبقايا روح؟ دعني آخذك للمرة الأخيرة وأطوح بك نحو الغيوم المثقلة بعطر التراب، ورمل الصحاري، وصراخ الرياح، ربما أيقظتنا أمطارها من غفوة الموت الأخيرة، وأعادتنا نحو أرض نعشقها. تلك أرضنا الوحيدة، ما عداها عدم ونهاية.

أحبك، فلا خيار لهذا القلب سواك. أغمض عينيك قليلا، ودعني أستعيدك كما تعودت أن أفعل معك، كلما مشيتَ نحو شقاء الروح. لا لوم، كلانا ضيع وقتا ثمينا.

قررت هذا اليوم ألا ألومك عن شيء. اللوم الكثير ويقين الكلام، يقتل الروح ويشد على الأنفاس.

هذا صباحنا ربما كان الأول، أو ربما الأخير، فلا تقتله. امنحه فسحة أن يعلو علينا كالنسر العظيم، وفرصة أن يكون.

فهرس الموضوعات

واسيني، هل أنت امرأة في جسد رجل، أم رجل في جسد امرأة؟

قالتها له ذات مرة قارئة في مقتبل العمر، في بيروت، وهي تقدم له باقة ورد، وروايتين ليوقعهما لها: طوق الياسمين وأنثى السراب. ابتسم واسيني كعادته، وقال: لا هذا ولا تلك. أنا واسيني فقط، الذي يحمل في أعماقه صرخات أمه التي لم يسمعها أحد غيره، ونشيج أخته زوليخا التي كلما وضع رأسه على صدرها، كف دمعها من شدة اليتم، وصوت جدته (حنّا) الناعم وهي تقص حكايات الجد الأندلسي العظيم. واسيني الذي كان يفتح عينيه على نساء قريته وهن يعانقن الصباح بالشد على الأمل رغم قسوة العيش. الذي عاش في مجتمع عائلي نسائي مكون من الأخوات الثلاث، وبنات الخالات والأعمام، والعمات والخالات، ويستطيع أن يقول اليوم بكل فرح إنه أصغى كثيرا إلى أنينهن الدفين عميقا. واسيني الذي سمع سخريتهن الحادة وبذاءاتهن الجميلة، في الحمامات التركية التي كان يرتادها مع أمه صغيرا، لكن بمخ أكبر منه، وعينين أكثر اتساعا من العادي، أو ممّا يجب.

هذا واسيني، لا أكثر.

هذا الكتاب هو صوت اللغة وهي تكسر بعنف على صرير السلاسل الثقيلة، قبل أن يكون صوت امرأة بعينها.
أنا امرأة عاشقة. امرأة مرشحة للجنون واليتم الأكيد.

قبل أن تشعلوا النار فيَّ، اسمعوني قليلا. أنصتوا إلى هذا الجرح الآتي من ظلمة الأعماق. أعماقكم أيضا. سأظل هنا أمام قدر الكلمات وصمت الحجارة حتى تأخذني عواصف القلب والذاكرة السجينة. نحن لا نكتب إلا لنقول الحرائق التي لم نجد لها حلا إلا وهم الكتابة. لا نكتب إلا لنضع ملمسا حيا على قطرة دم نزفت في عزلتها القاسية، وحده من يحس بها، يراها، يشمها، يلمسها، ويجلس برفقتها في كل عطب يصيبها.

تعالوا... الآن أشرع معكم أبوابي، وأمضي برفقة صمتنا جميعا.

